

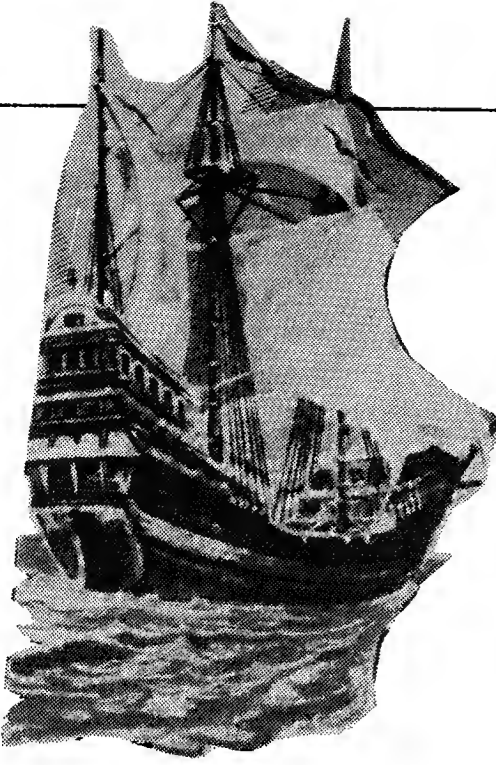
البرتغاليون في البحرين وحولها خبر القريين السادس عشر والسابع عشر

الرافع الرئيسي وأوقدوم البرتغاليين

تعتبر فترة الوجود البرتغالي في حوض الخليج العربي وعلى مياهه من أشد الفترات حلقة في تاريخ هذا الجانب من الوطن العربي فلقد أظهر ذلك الشعب الواغل في الوطن الاسلامي انه كان ممتلئاً حتى الثمالة كراهية للمسلمين وحقدا عليهم وتعطشا لسفك دمائهم ونهب ديارهم، ومعروف عن هذا الشعب ضالة موارده الطبيعية في بلاده الجبلية التي تكسو معظمها الاشجار البرية الحرجية، كما انه كان دائم الاحساس بالغبن حيال جيرانه المباشرين من الاسبان في شبه جزيرة ايبيريا التي دخلها الاسلام بعد معركة شريش الحاسمة اوائل القرن الثامن للميلاد في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان. وقد خضع معظم بلاد البرتغال للمسلمين الذين كان لهم وجود مستمر لأكثر من ثلاثمائة سنة في سائر

بقلم : أحمد العناني - قطر

منطقة الخابج



مناطقه، ولا تزال آثار الحضارة الاسلامية والعمران الاسلامي ماثلة في العاصمة لشبونة والمدن الاقليمية ولا سيما كويمبره التي كانت تعرف لثلاثة قرون في العصر الاسلامي باسم القلمرية.

لكن مياه البرتغال كانت وما تزال معروفة بوجود انواع طيبة من الاسماك فيها كسمك السردين ولما كان معظم البلاد واقعا على ساحل المحيط الاطلسي فقد ادى هذان العاملان الى اقبال البرتغاليين على البحر، وتمرسهم بالفنون الملاحية. وعلى أثر سقوط دولة غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا بأيدي الاسبان اصبح علماء المسلمين واساتذتهم المشاهير في علوم الفلك والبحار وغيرها تحت رحمة اعدائهم الذين اعتصروا منهم كل ما يستطيعونه واستغلوهم على احسن ما استطاعوا، وقد ظهر في البرتغال عندئذ سلسلة من الحكام اهمهم هنري الملاح من المتحمسين للاكتشافات البحرية ومن الحالمين بنهب ثروات الشرق الاسلامي والوصول الى الهند ومصادر البضائع الثمينة كالتوابل والحريير وخشب الصندل والعطور والعاج وريش النعام وغيرها.

اليه، البحر الاحمر والخليج العربي مهدده جميعها بطوفان الاوربيين المتحرقين شوقا للوصول الى طرق التجارة الاسلامية ومصادر الشرق للمواد الاولية، وكان البرتغاليون بطبيعة الحال هم رأس الرمح لهذا الزحف الجديد.

البرتغاليون في الهند والخليج

من الأمور المؤسفة بلا ريب اننا نفتقر الى المصادر التاريخية الاسلامية في سائر الفترات التاريخية غير المواتية لنا، من ذلك هذه الفترة الممتدة من بداية القرن السادس عشر وحتى اوائل القرن السابع عشر حين قامت ثورة اليعاربة العمانيين الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين من مسقط ثم من سائر الارض العمانية. هناك بعض المعلومات عن قبيلة الجبور المتفوقة في منطقة الاحساء ولكنها معلومات لا تقدم اية صورة شاملة متماسكة للاوضاع العربية في الخليج خلال ذلك القرن السادس عشر البالغ الحلكه، لكنها تؤكد هدفا أساسيا من اهداف هذا البحث عن البرتغاليين في البحرين وما حولها الا وهو تعاون الأطراف العربية في المنطقة في الانتفاض على البرتغاليين ومقاومتهم قدر الاستطاعة.

نحن لذلك مضطرون مع بالغ الاسف الى قبول الرواية البرتغالية للعديد من الاحداث خلال تفوق البرتغاليين، وازاء هذه الروايات فأنا حديثنا عن الحرب الصليبية التي ظلت مستعرة في الشمال الافريقي حتى بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في اسبانيا هو حديث وارد ذلك بأن البرتغاليين كانوا يعتبرون انفسهم جنودا للصليب في محاربة

ان هنري الملاح وغيره من حكام اسبانيا خاصة واوروبا الغربية لم يعتبروا سقوط غرناطة وخروج المسلمين من القارة الاوربية نهاية للحروب الصليبية وانما هم استأنفوها ضد شمال افريقيا مستغلين لاقصى الحدود تفوقهم النسبي الناشء عن تفرق المسلمين منذ سقوط دولة الموحدين التي أنشأها عبد المؤمن بن علي ورد بها عاديات المشركين عن الوطن الاسلامي.. ورغم ان الموانئ العربية الاسلامية في شمالي افريقيا اصابها ضرر بالغ من الاعتداءات الصليبية الا ان المسلمين استطاعوا في معركة وادي المخازن الحاسمة ان يوقفوا كل طموح للاوربيين المعتدين للتغلغل في عمق الوطن الاسلامي.

كذلك فإن استغاثات الاقلية الاسلامية التي بقيت في وطنها الاسباني تقاسي من ظلم الحكومات الصليبية استفزت الكثيرين من المسلمين في المشرق ومن هؤلاء عدد من مشاهير البحارة الابطال كخير الدين بربروسا وببيير رئيسي التركيين ممن اسهموا في القتال دفاعا عن الاسلام في غربي البحر الابيض المتوسط.

على ان البرتغاليين لم يكونوا ليجدوا امامهم اى عائق يذكر في انطلاقهم ازاء السواحل الغربية الافريقية على المحيط الاطلسي، وقد ظلوا بالفعل يتقدمون من هناك شيئا فشيئا، ويطرحون عنهم خرافات الماضي عن محاذير بحر الظلمات الى ان تمكن بحار مغامر منهم يدعى فاسكودي غاما من الالتفاف قبيل انتهاء القرن الخامس عشر من حول رأس الرجاء الصالح ليدخل المياه الاسلامية في شرقي افريقيا وليصبح المحيط الهندي وكل من البحرين التجاريين المفضيين

المسلمين بدلالة ما يلي:

اولا : اتصالهم بنجاشي الحبشة وتحريضه على الدخول معهم في حلف نصراني لمقاتلة المسلمين « ١ » ونشر المسيحية في اراض جديدة.

ثانيا : اصرارهم في سائر اتفاقاتهم مع هرmez على تثبيت شارة الصليب على الابنية الادارية الرسمية في الجزيرة...

ثالثا : التماسهم من البابا الموافقة على تسمية البرتغاليين بـ «سادة الفتح والملاحة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس» وهو التماس أقره البابا وصدق عليه.

رابعا : واهم مما سبق جميعا انهم كانوا يكتبون الى الملك عمانويل الاول ملك البرتغال رسائل مستفيضة يتحدثون فيها بافتخار بالغ عن حريق بلاد الكفار «ويعنون المسلمين» وعن بقر بطون الحوامل وجذع انوف الاسرى وأذانهم، ناهيك عن النهب والسلب معتبرين ذلك مفاخر تستأهل التسجيل، وذلك وارد في رسائل سائر قادتهم المعروفين كالفونسودي البوكيرك، ودي الميدا وغيرهما.

ولم يحدث اطلاقا ان حصلت مواجهة بين الحضارتين الاسلامية والنصرانية على الاسس التي استعان بها البرتغاليون وهي القضاء على طرق التجارة الاسلامية والاقتصاد الاسلامي وتقتيل المسلمين وتشتيتهم واحلال الدين المسيحي والحضارة المسيحية مكان دينهم ولقد كان البرتغاليون يعلمون ان القوة القاهرة هي وسيلتهم الوحيدة للمحافظة على وجودهم ولهذا عمدوا الى انشاء القلاع الحصينة حيثما كان ذلك لازما كما انهم ظلوا في المراحل الاولى من انتشارهم الواسع في الهند والخليج

وشرقي افريقيا يحافظون على تقاليد بحرية صارمة ويختارون لقياداتهم افضل الضباط واصلبهم عودا واشدهم احتمالا للشدائد والى هؤلاء يعزى أكبر الفضل في استمرارية حكمهم، حتى اذا ما وقعت البرتغال تحت حكم جيرانها الاسبان عام ١٥٨٠م بدأت تلك التقاليد الصارمة تفقد قوتها وفعاليتها ، وبدا واضحا منذ مطلع القرن السابع عشر ان عهد الضباط الاقوياء المغامرين قد انتهى وان اسطورة المنعة البرتغالية بدأت تفقد سحرها... الى ان جاء وقت اصبح فيه البرتغاليون مجرد مرتزقة يتشبثون بأطلال ماض زال ويؤجرون خدماتهم للحكام المحليين كما تشير الى ذلك الوثائق البرتغالية « ٢ » نفسها.

البحرين قبل البرتغاليين

وقبل ان يصبح الكلام واردا في العلاقات البحرينية البرتغالية التي هي صلب هذا البحث، يقتضينا الوضوح العلمي ان نشرح اوضاع البحرين خلال الجزء الاخير من القرن الرابع عشر للميلاد « السابع / الثامن للهجرة» السابق لظهور البرتغاليين على مسرح الاحداث في الخليج، وسوف نجد هنا تشابكا كبيرا في علاقات البحرين بكل من هرmez من جهة، وبالاخصاء من الجهة الاخرى. الاولى بسبب وضعها التجاري الفذ، والاخرى بالنظر لتحركات ونفوذ اسرة الجبوريين ولا سيما مقرن بن أجود بن زامل الذي تسميه المصادر العربية سلطان البحرين والقطيف « ٣ » وأرى من الملائم هنا ان اقتبس بعض ما يذكره صاحب تحفه المستفيد في صدد هذا الأمر «ولما مات سيف بن زامل خلفه اخوه أجود بن زامل واتسعت مملكته بحيث

ملك البحرين وعمان» وانتزع مملكة هرمز من ابن أخ الصرغل. وكان رئيس نجد هذا ذا أتباع يزيدون عن الوصف مع فروسيه.. وقال السيد السمهودي في كتابه «وفا الوفا بأخبار دار المصطفى» «٤» صلى الله عليه وسلم.. رئيس اهل نجد ورأسها سلطان البحرين والقطيف، فريد الوصف والنعت صلاحا وافضالا وحسن عقيدة، ابو الجود اجود بن زامل بن جبر ايد الله وسدده. ويزيد على ذلك الشيخ عبد القادر الجزيري الحنبلي في كتابه «درر الفوائد المنظومة» «٥» قوله في اجود بن زامل «... وولي بعد اخيه واتسعت له المملكة بحيث ملك البحرين وعمان ثم قام حتى انتزع مملكة هرموز من ابن اخ لصرغل كان استقر فيها بعد موت ابيه «... وهنا تثور اسئلة كثيرة بطبيعة الحال.. متى والى متى استمرت تبعية هرمز والبحرين للجبوريين وما هي الأوضاع التي جعلت من الممكن أن يفضي الحال بمثل تلك المراكز الحضارية والتجارية ذات الثراء والقوى البحرية الى الوقوع تحت رحمة قوة برية نجدية كالجبوريين؟

في الواقع ان الظروف التي جعلت من الممكن قيام دولة قوية في هرمز هي نفسها التي كانت تؤدي احيانا الى انتقال زمام الأمور الى عرب الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية..

مملكة هرمز وكيف نشأت؟

يذكر تكسيرا انه كان لهرمز القديمة سلالة من الحكام العرب الذين روى تاريخهم احد احفادهم المدعو طوران شاه فذكر ان مؤسس السلالة كان الشاه محمد درهم كوب وهو شيخ عربي من اصل خليجي كون هذه المملكة في اواخر

القرن العاشر للميلاد، وذلك قبل فترة ملحوظة من تعرض هذه المملكة التجارية لغارات الفرسان التتار التي اضطرت الملك العربي وشعبه ان يهجروا مدينتهم في البر الاصلي وينتقلوا اولاً الى جزيرة قشم ثم الى جزيرة جيرون « الاسم القديم لهرمز ».

ولا يوجد ادنى شك بأن تلك المملكة من مقرها في جزيرة هرمز التي احوالها الغنى التجاري من جزيرة جرداء خالية من كل علامات الحياة الى درة من درر المدائن في العصور الوسطى قد بسطت نفوذها على كل من البحرين والحسا والقطيف فضلا عن سيادتها ونفوذها في الاجزاء الجنوبية من ساحل عمان وجزر الخليج الجنوبية.

لكن هذه المملكة شهدت في مطلع القرن الخامس عشر صراعات مريرة على العرش كذلك الصراع الذي قام به سيف الدين مهار ضد والده تهمتن الثالث فيروز شاه حيث ارغمه على التنازل عن العرش فترك ذلك ردود فعل في الخليج بحيث انتفضت البحرين والاحساء على هرمز وتعدر عام ١٤١٧ هـ «٨٢٠هـ» على القوافل سلوك طريق البحرين - الحجاز «٦» كذلك ثار الأمير فخر الدين تورانشاه الثاني «حاكم ميناء قلهاة العماني» ضد اخيه سيف الدين مهار ملك هرمز وذلك بدعم ومساندة من العرب الذين امدوه بسفن بحرينية وخيول احسائية واموال من تجار عمان وقد دامت حرب الاخوين سجالات اربع سنوات ثم انتهت بانتصار تورانشاه.

ونحن مع الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان «٧» في مقاله القيم عن نشأة الجبور متعلقا بالظروف التي ساعدت الجبور من بني عامر على توسيع

سلطانهم على البحرين والقطيف.. وهي ظروف تتلخص في انتشار الفوضى الغامرة التي عمت العراق وايران وديار بكر وشمال سوريا والأناضول نتيجة الحروب المتواصلة فيما بين الدولة التيمورية ودولة قره قوينلو وما بين تينكما الدولتين ودولة قره قوينلو وما بين الاخيرة ودولة آق قوينلو ثم ما بين هذه وبين العثمانيين في بداية نشأتهم.. اصف الى ذلك الصراعات الداخلية على السلطة في داخل كيان كل واحدة من تلك الدول القبلية المتأخرة.. كل ذلك ادى بلا ريب الى ظهور فراغ في السلطة مما يمكن ان ينتفع به السكان المحليون في الاقاليم للخلاص من بطش العتاة المتقاتلين الأمر الذي اضعف الاوضاع الاقتصادية لمنطقة الخليج بعامة، ولجزئه الشمالي بشكل خاص.

ولما استتب الأمر لسلغور في مملكة هرمز كان طبيعيا ان يتململ من عواقب ما ابرمه اضطرابا مع الجبور في صدد البحرين والقطيف فراح يتمحك بادعاء الحق في مقاسمة اجود بن زامل عوائد البلدين لكن اجود استمسك بالنص الحرفي للاتفاقية المكتوبة الأمر الذي ادى الى نشوب القتال بين هرمز والاحساء لكن ضغط الهرمزيين على الجبور كان محتملا وغير فعال لان هرمز كانت بدورها تعاني عقدة الخوف من دولة آق قوينلو التي كانت خلال الحقبة الاخيرة من القرن الخامس عشر تحت حكم رجلها القوي خليل بك موصللو، فلما زال خطر ذلك الرجل عنها لانشغاله بأخطار برية برزت له على حدوده الشرقية بدأت هرمز تشدد من حملاتها ضد القطيف والبحرين.

موقف البحرين بين الهرازمة والجبور

الواقع ان فشل الحملات التي شنّها سلغور بقيادته شخصا ضد البحرين والقطيف وكذلك الحملات التي وكل بقيادتها وزيره «ريس نور الدين» او الى ولده طورانشاه بن سلغور يدل في حد ذاته على ان البحرينيين آثروا الوقوف الى جانب اخوانهم من عرب القطيف ونجد ضد هرمز ذات الارتباطات الوثيقة بالبر الفارسي.

ولقد انتهت تلك الخلافات على كل حال الى مصالحة شاملة أشار لها المؤرخ البرتغالي دي باروس «٨» معتبرا اياها حلا وسطا وقد تضمنت استمرار الصلاحيات الادارية للجبور في البحرين على ان يتعهدوا بدفع بعض ايراداتها الى هرمز مع الاعتراف الاسمي بتبعيةها النهائية لمملكة الهرازمة. على ان هذه المعاهدة التي يبدو انها عقدت بنهاية عقد

الجبور يتوسعون على حساب هرمز

انتفع اجود بن زامل الجبري كثيرا بتضعف احوال مملكة هرمز في الثلث الاخير من القرن الخامس عشر بسبب خلافها مع دولة الاق قوينلو في جنوب فارس فراح يركز نفوذه في الاحساء والبحرين حتى اذا ما توفي فخر الدين تورانشاه ملك هرمز جاءت الفرصة سعيا الى الاحسائيين ذلك بأن ابناء فخر الدين الأربعة مقصود وشهاب الدين وسلغور وياس تنازعوا على عرش أبيهم فالتجأ احدثهم وهو سلغور الى زعيم الاحساء اجود بن زامل فوافق هذا شريطة ان يتنازل له سلغور نهائيا عن كل حق يدعيه في البحرين والقطيف فوافق سلغور مع تحفظ واحد وهو ان يترك له ملكية خاصة لبعض بساتين البحرين ووقع بذلك اتفاقا مكتوبا مع زعيم الجبور.

الثمانينات من القرن الخامس عشر لم تكن تمثل سوى فترة مهادنة لصالح فريقين: أحدهما كان يمثل طموحا قريبا قويا ويجمع تحت جناحه عواطف السكان العرب في سائر المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية وفي معظم جزر الخليج والثاني فريق الدولة التجارية البالغة الغنى والآخذة سبيلها الى الهرم والهزال. ولقد اخذ كل فريق يعزز مركزه بالوسائل والمزايا المتاحة له فهرمز تستخدم المال والنفوذ والقوة البحرية، والجبور يستغلون مركزهم في البر الشرقي لشبه الجزيرة العربية ولا سيما في عمان حيث يستطيعون من هناك تهديد هرمز في أخطر المواقع الا وهو مخرج الخليج الجنوبي الذي تعول عليه هرمز للابقاء على وجودها نفسه.

وعلينا في هذا الصدد الأنسى الحروب التي كانت وقعت بين هرمز في بداية امرها وبين اهم مركزين تجاريين للعرب في الخليج خلال القرن الرابع عشر ألا وهما البحرين وجزيرة قيس وهي حروب تواصلت فيما يبدو حتى عام ١٣٢٠ للميلاد بتمكن قطب الدين شاه من الاستيلاء على قيس واخضاع البحرين «٩» وليس ذلك وحسب ولكن جزءا كبيرا من الساحل الجنوبي لعمان على الخليج ظل لفترة طويلة تابعا لمملكة هرمز.

ولقد يعجب البعض من تمكن مؤسسة سياسية محدودة الحجم في جزيرة بركانية ضئيلة وقاحلة كهرمز من مد نفوذها على كل تلك المناطق، ولكن هرمز لم تكن بدعا فمن قبلها كانت سائر المدن التجارية كقرطاجنة وتدمر والبتراء تمد نفوذها على مساحات شاسعة بفضل المال الذي يمكنها من تجييش الجيوش وتكثير

الاتباع والموالين، وفي حالة هرمز فان المعابر البحرية والمحطات والجزر البحرية لها ما للحياة نفسها من أهمية، فلو انغلق المرور عبر مضيق هرمز بسبب وجود وضع معاد على أحد جانبي الخليج او كليهما فان ذلك معناه الموت المحقق لجزيرة هرمز، ومن هنا كان لابد على الأقل من تحييد ساحل عمان المعروف «بسير عمان» حتى نهايته في رأس مسندم وكذلك ضمان سلامة وأمن العبور من الجانب الايراني المواجه له. اما لزوم البحرين لهرمز فيكاد لا يقل اهمية عن ذلك فهي محطة الاتصال بشمال الخليج، ووسيلة ضمان سلامة السفن الموقورة بالبضائع الهندية والصينية وغيرها مما يصدر عبر البصرة وتحمله القوافل البرية الى سواحل البحر المتوسط...

ولقد كان التنافس على النفوذ في سير عمان «الامارات العربية المتحدة اليوم» وفي البحرين أمرا أبديا فيما بين القبائل النجدية كالجبور والعوامر عموما وبني هاجر والدواسر والعجمان من ناحية والقبائل العربية القديمة الاستقرار على ساحل فارس المواجه والجزر مدعوم بطبيعة الحال من حكام المناطق الفارسية المتاخمة.. اما في عمان فأنديمومة حالة التنافس بين الساحل والجبل - وكان يمثلها في الفترة التي نحن بصدها النبهانيون والاباضيون على التوالي - قد افسح المجال لطموح اجود بن زامل الجبوري للتدخل في عمان وبسط نفوذه عليها.

لقد وقف الزعيم الاحسائي الى جانب الاباضيين ضد النبهانيين اصهار ملك هرمز، ولم يتردد عام ٨٩٣هـ «١٤٨٧م» في ارسال قوات كبيرة بقيادة ابنه سيف لساندة امام الاباضيين

يعجزون عن الوصول اليه او يتهيبونه بحال من الأحوال، فأما الضعيف والمستسلم فلا قول لهم فيه الا ما يهين ويشين..

البرتغاليون في الشرق

اذا كان الانجليز قد عضوا بالنواجذ على الخليج العربي مدى قرن ونصف من الزمان من اجل حفظ مواسلاتهم مع الهند سليمة في الحرب والسلام على السواء، جاعلين من المزايا التجارية وغيرها هدفا اضافيا الى جانب ذلك، فانهم قد جنبوا انفسهم بذكاء خطأ البرتغاليين القاتل وهو احتكار كل شيء لانفسهم، واعتصار كل فائدة مادية عاجلة مهما كان أثر ذلك على مستقبل علاقاتهم بالبلاد واهلها مظلما.

لقد وفد البرتغاليون الى الخليج كما يفد الطاعون ولم يكن حديثهم عن الدين والانتصار للصليب الا ورقة التوت الساترة لعورات الطمع وروح النهب والسلب، والتخريب التي تملأ وجودهم وربما لم تكن هناك أمة في أوربا قبل عهد الكشف الجغرافية في القرن الخامس عشر قد عانت من الفاقة نظير ما كان يعانيه البرتغاليون في وطنهم القليل الخيرات.

ولا يمكن نكران الوعي الفكري الذي اوجدته حركة العلم الاسلامي الزاهرة في «الاندلس» ولا القناعات التي اشاعها المسلمون في سائر القارة الاوربية عن كروية الارض. وعن الفرص المتاحة للفكر البشري بالاستكشاف والسير في الأرض. وترجع بداية الوعي البرتغالي الى عهد اميرهم المسمى هنري الملاح، «١٣٩٤ - ١٤٦٠» وهو رجل عاصر الانتصارات العثمانية الكاسحة في بر الاناضول والتي

المسمى عمر بن الخطاب الخروصي وتمكينه بالفعل من طرد سليمان بن سليمان النبهاني وذلك في مقابل امتيازات حصل عليها الجبوريون اضافت كثيرا الى قوتهم وجعلت منهم الخصم الاساسي لمملكة هرمز.

تقييم لموقف البحرين

وهناك حقيقة هامة ينبغي ان تظل ماثلة في الازمان وهي انه ايا كانت قوة الجبور فهي قوة برية شأنها في ذلك حتى شأن الدولة السلفية الوهابية الاولى بعد ذلك بثلاثمائة سنة الأمر الذي يدعو الى التساؤل عن تباعد موقف البحرين من هرمز واقترابه من الجبوريين علما بأن امكانات البحرين البحرية تجعلها في أمان من عدو داخلي على البر العربي خصوصا اذا كانت على تحالف مع ساحل عمان ناهيك عن هرمز ايضا. ونحن لا نتردد في القطع بأن علاقات البحرين كانت اوثق بالجبوريين منها بالهramزة علما بأن نفوذ الجبور لم يستطع ان يثبت نفسه في المواقع الساحلية الهامة كميناء مسقط وميناء خورفكان وميناء قلهاة.

فلو قد شاعت البحرين ان تؤثر توطيد العلاقات مع هرمز لكان لها ذلك، ولكنها لم تفشل تاريخيا في ان تكون لها اوثق العلاقات بالبر الاحسائي طالما قام فيه وضع سياسي معقول، واذا كان الفضل ما شهدت به الاعداء فان البرتغاليين لدى وصولهم الى الخليج اوائل القرن السادس عشر أشادوا في تقارير مرسلة الى لشبونة بالسلطان مقرر سلطان البحرين والاحساء والقطيف وبسمعته الممتازة وازدهار مملكته، والواقع ان ذلك لا يضيف عليهم اى فضل ولكنها طريقة الاوربيين المستعمرين حيال كل من

كلها احتلالهم القسطنطينية عام ١٤٥٣م مسجلين حدثا تاريخيا انهى حياة الجناح الشرقي للامبراطورية الرومانية بعد الف سنة تقريبا من سقوط جناحها الغربي وعاصمته روما. وبالإضافة الى التحدي الضخم الذي طرحه هذا الحادث الجلل في وجوه الاوربيين فهو قد يسر هجرة عدد ضخم من علماء البيزنطيين المتأثرين بالفكر والعلوم الاسلامية في المشرق مما ساعد على ايجاد منهج علمي في اوربا واكمل مجهودات الجامعات الاسلامية في بالرمو بصقلية وفي قرطبه بأسبانيا.. ولعل من النتائج البالغة الخطورة لذلك الحادث انه كان مقدمة لانتصارات اخرى للعثمانيين افضت بهم الى السيادة في العراق وسوريا ومصر وبذلك اصبحت سائر الطرق التجارية التقليدية الكبرى ضمن حيازة الاتراك ولم يعد لموانئ ايطاليا الشمالية المشهورة كجنوه والبندقية تلك المكانة التي كانت تتمتع بها طوال العصر السابق لهذه الاحداث الضخمة.

لقد اصبحت اوربا بكاملها تتحرق شوقا لتحقيق وسيلة تخرج بها من طوق الاحتكار التجاري الاسلامي فلم يكن هناك سوى واحد من حلين اثنين: اولهما محاولة الانتصار على الدولة العثمانية والثاني ايجاد طريق آخر للهند غير الطريق التقليدية عبر البحر الأحمر او الخليج، ولما كان الحل الاول متعذرا، فان الافكار اتجهت للحل الثاني وقد كان البرتغاليون بدافع صلاتهم بالبحر وتنبه افكار ملوكهم لا سيما الفونسو الخامس (١٤٤٣ - ١٤٨١) ودون جوا الثاني (١٤٨١ - ١٤٩٥) الى ضرورة اضطلاع البرتغال بدور ما في كسر طوق الاحتكار الاسلامي للخطوط التجارية مع الهند

والشرق الاقصى ومعظم القارة الافريقية، وكذلك لفقر بلادهم وللحواضر الدينية المتعصبة ضد المسلمين خلال ثمانمائة سنة من وجودهم في شبه الجزيرة اليبيرية «اسبانيا والبرتغال»، اقول قد كان البرتغاليون اول شعوب القارة الاوربية بحل معضلة الطريق الآخر الى الهند، ويجب علينا في هذا الصدد الا ننسى ان مثل تلك الخطوط ما كانت لتتوقع من شعوب الشمال الاوربي كالانجليز والاسكندنافيين والهولنديين مثلاً، لأن شعاع الفكر والحضارة الاسلامية انما كان تأثيره الغامر المباشر أشد ما يكون في حوض البحر الابيض المتوسط وبين شعوبه.

ومن الحق ايضا ان نقرر ان البرتغاليين كشعب جبلي متمرس بمشاق الحياة والفقر قد بذلوا في مجال الاستكشافات الجغرافية جهدا يستحق التقدير به.. صحيح انهم التزموا القرب من الساحل الغربي لافريقيا لدى دخولهم المحيط الاطلسي الجنوبي الى ان تمكن بارثلميو دياز من الطواف حول رأس الرجاء الصالح دون ان يدرك في البداية انه كان يستدير ليدخل مياه المحيط الهندي.

وايما كان الحال فبعد عقد واحد من الزمان في عام ١٤٩٨ وصل البرتغالي فاسكو دي جاما الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح واذ ذاك فتحت صفحة جديدة في تاريخ العالم ارتفع بها شأن اوربا الغربية، وتعرّز جانب العلم والابحاث العلمية، وانتقل احتكار البضائع الشرقية كالتوابل والحريير لايدي الاوربيين، وأدت الثروات الهائلة الى قيام الصناعات وظهور الثورة الصناعية التي كانت حوافرها الاساسية

السباق المحموم لزيادة الانتاج وسهولة النقل والتصدير الى الشرق لزيادة ارباح المبيعات الضخمة من البضائع المنسوجة وغيرها.

وفي الوقت الذي انفتح فيه باب الثروة للبرتغاليين على مصراعيه فان زملاءهم الاسبان وجهوا اكبر همهم صوب العالم الجديد حيث كانت عمليات النهب تملأ سفنهم بالنفائس والاطياب من بلدان كانت لها حضارات طمست بظهور اولئك الوافدين النهابين من اوربا.

التركيز ابتداء على الهند

عندما ادرك البرتغاليون حجم الثروات التي يمكن ان يؤمنها الاستيلاء على تجارة الشرق صحت عزيمتهم على احتلال المنافذ الحساسة للبحر الأحمر والخليج علاوة على محاولة الهيمنة على المراكز التجارية الهندية وقد عين فرنسيسكو دي ألميدا حاكما عاما للمستعمرات التي أنشأها البرتغاليون خلال سبع سنوات في جهات من الهند مثل جوا وكوشن، واسندت اليه ايضا مهام الاستيلاء على مراكز في كل من ملقا في الشرق وهرمز على مدخل الخليج وعدن على مدخل البحر الأحمر.

وعلى صرخات بعض امراء المسلمين في الهند من العدوان البرتغالي ولكل ما ظهر جليا من مخططات البرتغاليين التي جعلوا من جملتها الهجوم على الأماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز، تحركت عبر البحر الأحمر قوة بحرية اسلامية يرجح ان سفنها وبحارتها من سوريا ومصر بالرغم من كون القيادة تركية، وقد دارت معارك عنيفة ومطاردات شرسة بين هذه القوة الاسلامية واسطول البرتغال الحسن التصميم والتجهيز والمزود

بمدفعية ثقيلة وقد انتهت الأمور بتشتيت القوة الاسلامية قبالة السواحل الهندية مما زاد في حرج الامراء المسلمين الهنود وضاعف من خطورة الاوضاع في الخليج والبحر الأحمر اضافة الى الكوارث البحرية بين سواحل افريقيا الشرقية والسواحل الهندية.

وفي الوقت الذي ركز فيه الميدا جهوده في جوا عاصمة البرتغاليين الشرقية ليؤثر تأثيرا سلبيا للغاية في الحركة القديمة لنقل الكميات الهائلة من البضائع من موانئ هندية هامة مثل كلكتا الى المخزن التجاري الاكبر في هرمز ليجري نقلها بعد ذلك برا وبحرا عن طريق البصرة الى موانئ كجده والطور، نقول في ذلك الوقت عين عام ١٥٠٦ رجل من أشرس رجالات البرتغاليين واقواهم نفوذا الا وهو الفونسو دي البوكيرك ليتعامل مع عرب الخليج.

البرتغاليون في الخليج

قبل ان ندخل في اية تفاصيل عن همجية البرتغاليين في الخليج ومخططاتهم الفاشلة ضد حمى الاسلام المقدس في الحجاز يجب ان ننوه بأمر لعل اكثر مؤرخينا لم يولوه الاهمية والرعاية اللتين يستحقهما الا وهو الاتصالات البرتغالية التي سبقت التدخل المسلح.

فمن الثابت ان دون بيدرو البرتغالي شقيق هنري الملاح قد اوفد في بعثة الى البلاط العثماني واخرى الى البلاط الفارسي وذلك لاجراء اول عملية كشف واستجلاء للأمور كذلك يشير مؤلف دليل الخليج «١٠» الى ان دون جوا الثاني ملك البرتغال «١٤٨١ - ١٤٩٥» قد أرسل بعثات برتغالية متعددة في صدر البحث عن بلاد التوابل وذلك كمقدمة لما كان

يساور البرتغاليين من آمال في هذا الصدد. ومن هؤلاء جوا بيرس دي كوافيلوا الذي انفصل عن زملاء له في عدن ويمم شطر كلكتا وجوا وهرمز ثم عاد الى القاهرة مترافقا مع «ابراهيم» البيجاوي الذي كان قد اوفد تحت رعاية ملكية في لشبونة الى كل من بغداد وفارس وهناك موفدون آخرون قصدوا عاصمة اثيوبيا.

ان اغلب الظن ان بعض اليهود المستعمرين من شبه جزيرة ايبيريا لعبوا دورا في نطاق مهام هذه البعثات الاستطلاعية، والواقع ان الفرصة التي كان يراد انتهازها هي الخلاف الحتمي الذي كان سينتج من توسع الدولة العثمانية على حدود فارس، وبذلك خطط الغربيون لجذب فارس الى صف الغرب في صراع محتمل مع المسلمين في الشرق بما فيهم العثمانيون.

وذلك هو الذي حصل لاحقا وما كان ممكنا ان يحصل في يوم اوليلة. ان الحلف الصفوي البرتغالي انما جاء نتيجة مساع قديمة حصل فيها تفاهم بين البرتغاليين وعناصر فارسية مختلفة وانه لمن أسف بالغ ان عمان التي كان لابد ان تتلقى الصدمة الاولى من لدن غاصب مقبل من سواحل افريقيا الشرقية لم تكن في وضع داخلي قوي لاستقبال الغزاة البرتغاليين بمقاومة جدية صادقة. فلقد اشربنا من قبل الى ظروف الخلافات الداخلية فيها وتدخل كل من هرمز والقطيف في شئونها، ولكنه يبدو ان الامامة العمانية كانت تعتبر مسئوليتها الامنية مقصورة على مناطق الامامة الداخلية حيث ان ثغور الساحل كانت مرتبطة بهرمز، ويرى الدكتور سليمان محمد الغنام، «١١» ان سكوت الامامة

عن كل ما حصل في مسقط وقريات وصحار وقلعات من فطائع البرتغاليين ناتج ايضا عن اليأس من امكان المواجهة مع البرتغاليين وهم بكل العنفوان الذي ظهروا به. على أنه يمكن ان يقال بحق أن الاوضاع السياسية والاجتماعية في عمان كانت قد بلغت من الضعف والهزال ما جعل السكوت عن جرائم البرتغاليين في السواحل مجرد تعبير عن حالة من التدهور والانحلال.. وهي أحوال ظلت تأخذ ابعادها الى ان افضت في بداية القرن التالي الى ثورة اليعاربة.

الوضع المتدهورة في الخليج

وقبل ان نتحدث عما وقع في عمان وغيرها نرى ان هناك ظاهرتين تلفتان النظر ولا بد من أخذهما بعين الاعتبار في تقييم الثورة التي قامت لاحقا في البحرين ضد البرتغاليين.

فأما الحقيقة الاولى فهي ان شعوب المنطقة في حوض الخليج وشرقي افريقيا بالكامل كانوا في حالة متدهورة من سائر النواحي الاجتماعية والنفسية، وحسب المرء ان يقرأ في الرسائل الموجهة من شيوخ من افريقيا الشرقية والخليج وفيها من التعظيم والتفخيم لضباط البرتغاليين ومسئولهم العسكريين ما تسمئز له النفس وتعافه.. لقد كانت هذه الرسائل تستغرق صفحتين احيانا فهم حماء البر والبحر وأمن الخائف وقاهرو الاعداء .. الى آخر ذلك. وفيما يلي بعض مقدمات تلك الرسائل. «١٢».

الى حضرة الملك الافخر والمولاء الاعظم سلطان دون منويل والى البر والبحر معطي الاحسان في كل مكان مالك ممالك الدنيا مظفر الاعداء ومملكته من

الشرق الى الغرب عظيم
السياسة وقديم الفراسة ذو
الجود صاحب السيف والقلم
باسط اللطف وأتم العدالة خلد
الله سلطنته وايد ملكه دايم
ابدا ثم نعرض على حضرتك
الشريفة بأن عام الأول أئانا
كتابكم الشريف وفرحنا به..
غاية الفرح والابتهاج ونعلمك يا
سيدي.. ***

الحمد لواهب العقل هذه
عريضة المحبة والمودة من بندر
برتكال بندر كننوز الى الحضرة
الاخوية ذو المكارم الحميدة دون
واسلو دغامه اعظم كبار البرتكال
المعين على زم المحبة ونوايب
زمان عهده وزير الميرانتي اعلا
الله شأنه وقرر دوامه اما بعد
المحبة الخالصة والمودة
الصافية نعرض على شانك
الشريف بأن المکتوب المرسل
بالمحبة قد وصل الى حضرت
كولتري وقراه كلاما بعد كلاما
وفرح به فرحا كثيرا على ما راء
فيه من المحبة ودعي لكم بطول
العمر وزياد دولتك وهو كل يوم
يذكرك لأجل ازدياد محبتك وانا
لأجل محبتي لك كتبت كل هذا
الكتاب سرا وما احد عرف.

وثانيا: ان الاسر الحاكمة في المنطقة
هبطت بالمستوى الخلقي للمسلم الى دون
الحد الادنى الذي يمكن للمرء ان يتصور
تراجع المسلم اليه، ففي خلال رحلة
للبيوكيرك مثلا الى هرمز سابقة لوفاته
بسنة واحدة - أى عام ١٥١٥ للميلاد
استقبل سفيراً موفداً من قبل الشاه
اسماعيل الصفوي من طهران فكان من

جملة الاقتراحات التي طرحها
للمفاوضات « ١٣ ».

اولا : ان تقدم البرتغال بعض سفنها
لايران كي تتمكن الاخيرة من غزو
البحرين والقطيف.

ثانيا : ان يقوم تحالف بين فارس
والبرتغال ضد تركيا.

ولسوف نرى لاحقا ان احدا على
المدى الطويل لم ينج من خطيئة التحالف
مع البرتغاليين لغرض اواخر كما حصل
من متسلم البصرة في استعداداته السفن
البرتغالية ضد السواحل القطرية بعد
فترة طويلة جدا من وجود البرتغاليين
وانكشاف كل مساوئهم.

بدأ البوكيرك لدى وصوله سواحل
عمان « ١٥٠٧ » م بتدمير سائر مراكب
العمانيين التي صادفها في طريقه أيا كان
نوعها. وكان من بينها تجمع من حوالي
عشرين سفينة عند جزائر كوريا موريا
على ساحل عمان على بحر العرب، وعندما
وصل الى قلعات قيل انه استقبل بحفاوة
حالت بينه وبين ايداء المدينة ومنها تحرك
البرتغاليون الى قريات فاحتلوها عنوة.

وبينما يذكر كاتب مقال « البرتغاليون
في جزر البحرين » « ١٤ » ان مسقط
رفضت التسليم لذلك فتح البرتغاليون
عليها نيران مدافعهم البحرية الى ان
استسلمت يقول لوريمير ان البوكيرك لم
يجد في مسقط اية معارضة حين بلغها
« ١٥ » لكن قوات كبيرة بدأت في التجمع
على الساحل بنوايا عدائية واضحة الأمر
الذي حمل البوكيرك على النزول الى البر
وضرب المدينة واشعال النار فيها وفي
مينائها.

ويقول صاحب مقال الجمعية الملكية
الاسبق ان البرتغاليين عمدوا الى رؤساء
الاحياء والقبائل وسائر شخصيات

مسقط فاحتجزوهم واهانوهم وقطعوا
انوفهم وآذانهم ثم انقضوا على المدينة
فنهبوها وبعد ان ملأوا سفنهم بما
احتملوه قاموا باحراق المدينة ثم انطلقوا
ليكرروا نفس هذه العمليات في سلسلة
من المدن والقرى العمانية الساحلية.

ويؤكد ويسون هذه الحقائق
المأساوية « ١٦ » موردا نفس الاوصاف
عن الحرق والنهب والتمثيل بالاحياء في
صحار وخورفكان وكل مكان معمور مر به
اولئك البرابره الى ان وصلوا الى رأس
مسندم ليتوجهوا من بعد الى هرمز في
العدوة المقابلة من الخليج.

وانه لمن أسف بالغ حقا ان وقوع تلك
الجرائم البربرية في مدن المسلمين لم يكن
كافيا لردع المتهاوشين على زعامات المدن
والقرى الداخلية في عمان عن مواصلة
نشاطهم المخرب ضد بعضهم بعضا.

البرتغاليون وهرمز - البحرين تقاتل الغزاة

هناك على وجه التحقيق غموض اكيد
فيما يتعلق بحقيقة ما حصل لدى اقتراب
البرتغاليين من جزيرة هرمز فالصادر
مجمعة على ان العرب الذين اصبحوا على
يقين مما يفعله البرتغاليون في الذين
يستسلمون لهم كما حصل على امتداد
الساحل العماني من نهب واحراق وتمثيل
بالاحياء وسبي للولاد والنساء كانوا قد
قرروا ان يدافعوا عن هرمز ليس فقط لان
السيادة فيها لحاكم عربي وحسب ولكنها
لانها بالنسبة لهم جميعا هي حاضرتهم
الاولى وهي محج التجار والبضائع
والسفن من كل مكان، وهي بالنسبة لهم
تعني حياة ميسورة ورزقا جاريا.
ان المصادر الغربية التي تنفرد

بالحديث عن سائر وقائع الغزو البرتغالي
تناقض نفسها حين تشير الى الملاينة
الواضحة في سلوك البرتغاليين حيال
هرمز في الوقت الذي تؤكد فيه وقوع قتال
غاية في الضراوة.. فهل كان البرتغاليون
يبقون على شيء لو كتب لهم النصر
واقترحوا الجزيرة عنوة؟.. هل كانوا
يغضون عن وضع يدهم على جمارك
هرمز؟.. الواقع ان حقيقة ما حصل ولا
سيما بالنسبة لنتائج القتال يجب ان
يكون مغايرا كل المغايرة للرواية
البرتغالية التي أخذ بها سائر المؤرخين
الغربيين.

ان الحقيقة تقتضينا مناقشة مختلف
صيغ الروايات التي بين أيدينا عما جرى
بين البرتغاليين وهرمز التي اعدت دفاعا
مستميئا كما تقدم للاشتراك معها في
المعركة اسطول بحريني ومتطوعون من
كرمان ومن الجزر والسواحل بحيث
اصبح عددهم اضعاف عدد المهاجمين
كما ان تحصينات الجزيرة والسفن
المدافعة عنها على طول سواحلها
واستدارتها لا ريب لقنت البرتغاليين
درسا لم يكونوا يتوقعونه وهو الذي اعاد
لهم الصواب وحطم من عجزفتهم
وتصرفاتهم الجبانة الدنيئة ضد السكان
المسلمين باسم الدين وهو براء منهم.

ولنبدا برواية لوريمير يقول هذا
الرجل بكل الروح الصليبية التي يظهر
بها كلما عالج موقفا تاريخيا ينطوي على
شجاعة من المسلمين ودفاع عن مبادئهم
ما يلي.. «١٧» واخيرا وصل «يعني
البوكيرك» الى هرمز.. الى الملك او الشيخ
الذي كانت كل القرى بساحل عمان التي
مر بها (يعني البوكيرك) خاضعة له وتدفع له
الجزية ، وكان اسمه سيف الدين ، وقد

رفض ذلك الشيخ ان يستسلم فبادر البوكيرك الى الهجوم بأسطوله الصغير على الاسطول الضخم الذي كان يتولى الدفاع عن الجزيرة وبعض سفنه هندية ، واستطاع البوكيرك ان يحرز نصرا سهلا وتاما .

وفي سبتمبر ١٥٠٧ وقع البوكيرك معاهدة مع الشيخ سيف الدين أصبح هذا بمقتضاها تابعا للتاج البرتغالي بل انه ايضا وبعد شهر رفع على قصره علما عليه شارة الصليب، وبدأ البرتغاليون ينشئون لهم قوة اطلقوا عليها «جيش النصر» وفيما بعد رفض الشيخ سيف الدين رسالة من الشاه اسماعيل ملك فارس تطالبه بالولاء وفاقا لاوامر البوكيرك الذي ارسل بدوره مع جواب سيف الدين رسالة مفعمة بالعجرفة لتسليمها للشاه.

هذه هي الصيغة التي اصطنعها صاحب دليل الخليج ونلاحظ عليها ما يلي:

أولا : ان البوكيرك الذي احرز نصرا سهلا كان من العفة بحيث لم ينهب الجزيرة رغم كل اهرائها الملائى بأثمن البضائع العالمية بكميات هائلة، ورغم الثراء الفاحش في قصورها.. والجواهر والذهب مع نسائها. **ثانيا :** اما السفن الهندية التي يتحدث عنها لوريمير فهي سفن لبعض امراء المسلمين الهنود الذين كانوا يتحرقون شوقا للجهاد ضد البرتغاليين في اي مكان في الدنيا بعدما بلوا ما بلوه من غدرهم وهم فيما بعد كما سنرى استنجدوا بتركيا واستقبلوا بعض سفنها الحربية التي وصلت اليهم استقبالات حاشدة.

ثالثا : يحاول لوريمير جهده ان يخفى معظم قسمات الصورة التي يريدها ان تعكس اسباب فشل البرتغاليين فيلمح الى دور الشاه عباس ملحقا كما رأينا الى ان البرتغاليين الذين مكنتهم الشاه عباس مما لم يكونوا قادرين بقوتهم على الوصول له اخذوا

يديرون له ظهر المجن في موضوع هرمز.. ولو شاء لوريمير ان يتكلم حسبما قرأ في مصادره لاستطاع ان يقول ان القتال كان في غير صالح البرتغاليين لكن الشاه عباس تدخل في صالح اصدقائه البرتغاليين ونكاية في عرب الخليج وتخوفا من أنباء التقدم العثماني الذي كان ينذر باحتلال العراق والتقدم جنوبا الى مناطق الخلافة الاسلامية السابقة.

لكن هناك رواية اوضح واقرب الى المنطق من رواية لوريمير وهي رواية ويلسون صاحب الكتاب المعروف عن الخليج^(١٨)، وفيما يلي اقدم الجزء الهام من تلك الرواية ليلاحظ القارئ مسافة البعد بينها وبين رواية لوريمير.

«ومن رأس مسندم مضى الاسطول البرتغالي الى هرمز مباشرة، وهي كانت عاصمة سائر الثغور والاقاليم التي اشرنا من قبل لها.. والقى البوكيرك مراسيه قبالة الجزيرة.. وقد كان البرتغاليون في البداية في خشية وتردد لضخامة وطبيعة الواجب الذي كان عليهم الاضطلاع به» لقد امكن لرؤساء الاسطول البرتغالي ان يشاهدوا عن كثب عظمة المدينة ووفرة الرجال والفرسان المتجمعين على سائر الساحل، والسفن العديدة الرابضة في المراسي والمشحونة بالرجال والسلاح.. وقد اصيب البرتغاليون بخيبة امل وأسى بالغين وتقدموا نحو البوكيرك ليصارحوه ويحذروه من مغبة ما كان مقدما عليه، لان تلك الحاضرة لم تكن كغيرها من المدن والقرى التي دمرها».

ثم يمضي ويلسون ليقول: لقد كان ملك هرمز قد تلقى معلومات عن البرتغاليين قبل دنوهم من بلده وأعد للأمر عدته وهو هنا يروي عن فاريا دي سوسا البرتغالي قوله «حينما وصل البوكيرك الى هناك كان سيف الدين يافعا يناهز الثانية عشرة من عمره

وانما كان يتولى ادارة البلاد الخوجا عطار وهو رجل حاذق وشجاع، بادر حينما سمع بأفعال البوكيرك في عمان باقامة الاستعدادات وتسخير سائر السفن بالدفاع عن البلد كما استأجر جنودا من المقاطعات المجاورة من العرب والفرس وغيرهم، وبذلك اصبح في المدينة من المدافعين عنها ثلاثون الف جندي محارب بينهم اربعة آلاف فارسي من المشهود لهم برمي السهام كما كان في الميناء من بين اربعة آلاف سفينة وقارب ستون سفينة ضخمة عليها الفان وخمسائة مقاتل. وهذه الارقام هي التي يوردها فاريادي سوسا لكن ويلسون يضيف بأن خوجا عطار نصب على سفن الميناء الكبيرة مدافع ضخمة كما سلح قوارب خفر الساحل السريعة بمدافع صغيرة وشحنها برجال من رماة السهام.

ثم يعترف ويلسون بقيام مفاوضات بين الطرفين.. لكنها مفاوضات انتهت الى الفشل فقام البوكيرك على الاثر بهجوم «لم يكن سهلا بحال من الاحوال» فأحرز انتصارا بحريا كاملا.

وينقل ويلسون عن سوسا هذه الفقرة مما سمي بالتعليقات - وربما كان المقصود بها شروحا على متن تلك المذكرات وفيها يروي هذا الحوار «لقد سمع ملك هرمز رسالتكم ويرغب ان يعرف منكم ماذا تريدون، وماذا تنشدون في هذا المرفأ فأجاب الفونسو البوكيرك بقوله «قل لملك هرمز ان الملك دون عمانويل ملك البرتغال وسيد الهند يرغب في صداقته كثيرا فأرسلني الى هذا المرفأ لأخدمه بأسطوله، فاذا كان الملك راغبا في ان يكون تابعا له يدفع له الجزية فسوف اعمل سلاما معه وأخدمه في كل شيء يأمرني به ضد اعدائه، واذا كان غير راغب دعه يعلم انني حتما سأدمر كل اسطوله الذي يضع ثقته فيه وأخذ مدينته عنوة بالسلاح».

فاذا فرضنا جدلا ان ذلك هو الذي اجاب به الفونسو البوكيرك فمتى يمكن لذلك السفاح ان يقول انه جاء لخدمة امير شرقي؟ ومتى كان يضع نفسه تحت امر احد من قادة المناطق المحلية؟ انه حتى لو كانت رواية هذا الحوار صحيحة لا غبار عليها فانها تدل دلالة مبطنة على ان البرتغاليين ذاقوا مرارة خسائر ضخمة قبل ان تتحسن لغتهم. ثم ما قيمة التهديد بعد وقوع قتال مرير كما يروي ويلسون نفسه نقلا عن سوسا؟

ما الذي منع البوكيرك من تدمير هرمز كما فعل في مسقط وغيرها؟ هل يمكن ان يكون ذلك غير العجز الفاضح؟

ان الحلقة المفقودة في هذه القصة هي بلا شك الدور الذي لعبه الشاه الصفوي..

وان من مثيرات الشك في مجمل الرواية البرتغالية مثلا الخلاف الشديد بين الشاه اسماعيل الصفوي وبين شيخ هرمز حول من يأخذ ما سمي بالجزية.. أهو ملك فارس؟ أم الفونسو البوكيرك؟.. وهناك كلام كثير في الرواية البرتغالية مفعم بالكبرياء والعجرفة لكنه لا يخفي عجز البرتغاليين عن تسيير الامور وفق ما كانوا يتمنون في هرمز، ويبدو منه جليا ان البوكيرك والشاه الصفوي كانا على مسافة بعد واضحة في تقييمهما لسائر الامور، فالشاه فيما يبدو هو الذي اقنع الهرامزة بأن يردوا كيد البرتغاليين بقبول صلح معهم، وربما يكون قد تكلم عن مزايا مالية امام البوكيرك فيحمسه على المهادنة التي كانت في صالحه اي صالح البوكيرك، وكذلك ليشعره ان هرمز وغيرها انما تطيع ملك فارس وتحارب وتسلم برأيه.. لكن الشاه الصفوي وجد البرتغاليين قد احسنوا التفاهم مع الهرامزة ولذلك فلم يقرؤا دفع شيء للصفويين !! وهناك موضوع يثير الشك في ادعاءات

البرتغاليين الا وهو التمرد العلني الذي قام به قباطنة السفن ممن اشتركوا في محاولة لاغتيال البوكيرك، الامر الذي اضطره - أي البوكيرك - على رأي سوسا «ان يتخلى مؤقتا عن الفتح !!»^(١٩).

دور البحرين

ولا يشير اي من ويلسون او لوريمير الى دور البحرين في تلك المعركة بالرغم من العلاقة الخاصة بين هرمز والبحرين غير ان كاتب مقال الجمعية الملكية الاسيوية^(٢٠) يقرر ان البحرين كانت تابعة لهرمز، حيث ان الاخيرة كانت السوق الرئيسية لتصريف لآلء البحرين.

يقول المقال المذكور ما ترجمته بالحرف «لقد ارسلت البحرين اسطولا عليه امداد من الرجال والمؤن الى ميدان المعركة في هرمز، لكن البرتغاليين تحصنوا لهذه القوة وكمنا لها في مياه جزيرة قشم وقد تمكنوا بعد قتال مرير من اغراق السفن البحرينية. وعلى الاثر دار قتال بحري عنيف جدا بين المهاجمين والمدافعين عن هرمز وانتصر البرتغاليون رغم ضالة عددهم وامكن التوصل لنصوص معاهدة بين هرمز والبرتغاليين سمح بموجبها للبرتغاليين ببناء قلعة لهم ولكن البوكيرك اضطر لمغادرة تلك الاراضي والتوجه عائدا الى الهند بسبب تمرد ضباطه عليه.

الخليج والبحرين في ظل

الحلف الصفوي البرتغالي

ان الاضطراب في الروايات عن حقيقة ما جرى في هرمز، وعن تفاصيل الوفاق الثلاثي بين الشاه والبوكيرك وخوجا عطار الذي انهى حالة القتال في هرمز وبالتالي أوجد وضعاً غير مريح لضباط الاسطول البرتغالي فضلا عما تكبدوه من اصابات وخسائر لم يتعودوا عليها من قبل حين سقطت عمان

بأيديهم نتيجة المباغطة وعنصر العنف في الهجوم وتفرق كلمة العمانيين.. وقد أدى ذلك كله الى تمرد الاسطول وانسحاب البوكيرك الى الهند، وان كان أحد لا يستطيع ان يجزم بمنشأ التناقضات الغربية في الموقف.. كأن تبني قلعة برتغالية في هرمز وتكف أيديهم في الوقت نفسه عن ادارة الجمارك او ابتزاز الغنائم..

وعلى كل حال فان تقديم مكافأة مالية من هرمز لجهة ما كان دائما امرا واردا فهي بلد صغير اكثر ما تجيء اهميته من اقتداره المالي، وقد كان النزاع على من يستحق هذه المكافأة هو الشاه اسماعيل أم البوكيرك، يؤدي الى خلاف خطير لكنه يبدو ان الشاه كان حيال التهديد التركي له مستعدا للتنازل للبرتغاليين عن كل شيء وسنرى ان الحلف الصفوي البرتغالي قد استمر طوال خمسين سنة، وان ممن قاسوا بسببه كانت البحرين بالرغم من علاقاتها الوثيقة بدولة الجبور وترحيبها بجهود العثمانيين ضد غطرسة البرتغاليين.

ومن الغريب ان تتناقض مصالح السكان العرب وتختلف بالتالي مواقفهم من العدو البرتغالي الواغل، ذلك بأن السكان العرب لمدينة البصرة التي وقعت تحت النفوذ الصفوي اعتبارا من عام ٩١٤ للهجرة الموافق ١٥٠٨ ميلادية^(٢١) وحتى عام ٩٥٣ هـ (١٥٤٦) حين دخلها العثمانيون ظلوا مواعدين نتيجة الرفاه الحاصل من حالة السلام الناشئة نتيجة معاهدة الصداقة المعقودة رسميا بين البرتغاليين والصفويين^(٢٢).

غير ان البصرة الواقعة في اقصى شمال الخليج لم تكن تصطي بنار البرتغاليين على المستوى الذي خبره الناس في جنوبي الخليج وعلى اية حال فان موقف الحكم الصفوي الموالي للبرتغاليين كان عنصرا

ضاغطا في البصرة بحيث لم يحصل فيها اي تجاوب مع ثورة البحرين.

لقد أضحي واضحا بعد معركة جالديران (٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م) والتي انتصر فيها الاتراك على الفرس فدان لهم نصف العراق الشمالي بما فيه العاصمة بغداد، ان الصفويين لن يدخروا أي جهد يستطيعونه للسير مع البرتغاليين قلبا وقالبا. كذلك فان دولة العثمانيين الاتراك اصبحت تدرك مدى مسئولياتها حيال دفع الخطر البرتغالي ليس عن اماكن الاسلام المقدسة وحسب، ولكن ايضا عن طرق التجارة الاسلامية في كل من المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج.

ولا يمكن لنا ان نتصور وقوع هزيمة جالديران بالصفويين دون ان يترك ذلك رد فعل في الخليج، ولو قد فرضنا المستحيل ووضعنا على مستوى واحد تهديد العثمانيين والبرتغاليين للمنطقة بأسرها فان خطر البرتغاليين كان خطرا واقعا فيما كان التهديد العثماني امرا بعيدا حيث كان نصف العراق الجنوبي ما يزال بأيدي الصفويين كما ذكرت.. وليس هناك شك في ان عرب الساحل الشرقي للجزيرة العربية كانوا يعتبرون العثمانيين منقذين لهم من بطش جبابرة الصليبيين واذا كان المسلمون في الهند يعتبرونهم كذلك افلا تكون عواطف عرب الجزيرة معهم ؟

وأما كان الحال فان جراحة البحرينيين في مقاومة البرتغاليين والانقضاخ عليهم لا يمكن الا ان تكون اكتسبت تشجيعا بأخبار الانتصارات العثمانية على البرتغاليين..

ويستدل من دراسة اوامر الجيش العثماني في القرن السادس عشر^(٢٣) بأن تأخر الاتراك بعض الشيء في التقدم جنوبا الى البصرة في العراق انما كان مرده التركيز الملح على عدن اذ كان دخول البرتغاليين الى عدن فالبحر الاحمر يعني تهديدا خطيرا

للاماكن المقدسة الاسلامية، وهو ما كان البرتغاليون يصرحون به.

ولا شك ان ارتحال البوكيرك من منطقة هرمز عائدا الى الهند وانهماكه بعض الوقت في الاشكالات الناتجة عن تضارب صلاحياته مع صلاحيات دي الميدا في جوا والتي دامت الى عام ١٥٠٩ حين فصل فيها^(٢٤) ملك البرتغال بتسمية البوكيرك نائبا له في الهند اقول ان ذلك الارتحال على الصورة التي تم بها، وتلك المشكلات وما دار من جدل بشأنها أدت الى الاضرار بالسمة التي كان يتمتع بها البرتغاليون كقوة شديدة المراس وليس يعلم يقينا طبيعة الخلاف الذي اشتد بين الميدا نائب الملك حتى ١٥٠٩ وبين خصمه وخلفه في المنصب الفونسو البوكيرك ولكن يبدو ان تمرد القباطنة ومسألة الصلح في هرمز والخصام بين حكام البرتغال مترابطة وتدور على محور واحد هو استئثار البوكيرك بالرأي واعتداده بنفسه اعتدادا ملؤه الغرور والعجرفة، وليس مستبعدا ان بعض القباطنة كانوا يعملون بتوجيه من دي الميدا، ويبدو ان انصار البوكيرك في لشبونة كانوا هم الفريق الاقوى بحيث اتخذت حكومة البرتغال قرارا جاء مباغتا للميدا وهو تسليمه مقاليد منصبه لخصمه، ويذكر ويلسون^(٢٥) ان الميدا رفض اول الامر تسليم المنصب الى البوكيرك لكنه اذعن لاحقا.. وفي هذه الفترة اشتدت المقاومة للبرتغاليين في الهند نفسها كما ظهر على غير توقع اسطول عثماني لمعاونة الامراء المسلمين، وقد افضى تطور الامور الى خسران البرتغاليين جوا كما خسروا هرمز ولكن قوة الاسطول البرتغالي مكنته من سرعة استرداد جوا. كذلك فان الحملة البحرية العثمانية بقيادة سليمان باشا^(٢٦) لم تكن اكثر من تعبير عاطفي لتطمين الهنود المسلمين واثارة حميتهم لمواصلة مقاومتهم للبرتغاليين.

الحقد الصليبي البرتغالي

يؤخر الهجوم على البحرين والبصرة

كان واضحا من اضطراب امور البرتغاليين في الهند حين يركزون على الخليج، وفي الخليج حين يركزون على الهند ان ما حققوه بالدعاية والعنف كان في الواقع اضعف من امكاناتهم.

وبعد استرداد انفاسهم باستعادة جوا عاودوا التفكير في حل جذري يخلصهم من الفكرة السائدة في شعوب الشرق الاسلامي بأن دولة الخلافة قادمة للقضاء على كل ما صنع البرتغاليون ورتبوا في عالم المسلمين سواء أكان ذلك في الهند أم في شرقي افريقيا ام في الخليج.

ورغم الاخبار المقلقة التي كانت ترد الى البوكيرك عن زوال سائر الاثار الحاصلة عن غزوته البحرية لجنوبي الخليج، الا انه كان على اعتقاد راسخ بأن الطريقة المثلى هي القضاء على الاتراك من مكان تدفقهم الى مسرح الصراع عن طريق البحر الاحمر.

وقد كتب رسالة الى لشبونة عام ١٥١٢^(٢٧) يقول فيها «على انني أؤكد ان اعظم المخاطر على جوا انما هو الاعتقاد الراسخ المتداول بأن الاتراك قادمون، وهذا امر يثير اكبر الاخطار في الهند ويسبب لبلة عظيمة للسكان المحليين الذين دخلوا النصرانية، وانني ازاء هذه الظاهرة المؤذية أود ان ارفع لجلالتكم بكل احترام بأننا ما لم ندخل البحر الاحمر فنؤكد للمذعورين في الهند بأن لا وجود لمن يخافونهم من الترك فانه لا امل في استقرار السلام بين رعايا جلالتم في الهند.

وبعد ارسال هذه الرسالة بفترة وجيزة توجه البوكيرك مع اسطوله كله من جوا الى الغرب يريد عدن فمكة على انه بسبب عامل المناخ لم يستطع ان يحقق اكثر من ازالة قلعة سوقطرة بعد ان تقرر عدم التمسك

بذلك الموقع، ولكي لا تقع القلعة في يد الاعداء، كما ان البوكيرك تلقى دفعة مالية من هرمز.

وفي فبراير ١٥١٣ وصلت توجيهات من ملك لشبونة الى البوكيرك بأن يتقدم بكامل اسطوله الى عدن عسى ان يندفع بعد ذلك عبر مضيق باب المندب الى البحر الاحمر. وكان مع البوكيرك عشرون سفينة كبيرة تحمل الفا وسبعمئة جندي برتغالي وثمانمئة مالاباري وكناري قاصدة رأس غردقة ومن هناك توجه الركب الى عدن. لكن الهجوم على عدن انتهى الى فشل ذريع ذلك بأن اقصى ما استطاع البرتغاليون ان يفعلوه هو احراق بعض المراكب التي كانت راسية في الميناء بعد ان اتموا نهبها لكنهم وجدوا التقدم بعد جزيرة قمران عملية مكلفة جدا فعادوا الى موقع ديوحاولوا التحرش مرة اخرى بعدن ففشلوا في احداث اي شيء في المدينة.

لقد اصبحت سياسة التطرف والمجازفات العدوانية الخيالية، والتصورات الحاقدة بامكان الوصول الى مكة والاعتداء على أقدس مقدسات الاسلام بضربة شديدة بالفشل الذي صادفته حملة البوكيرك هذه التي استطاع ان يحمل لشبونة على الموافقة عليها وان يسكت صوت البرتغاليين المعتدلين الذين كانوا يرون خطأ آخرمختلفا جدا للعلاقات البرتغالية في الشرق، ولا يؤمنون بسياسة بناء القلاع والاعتماد على البطش بعدما تبين لهم ان العالم الاسلامي اكثر سعة، واخصب بمواطن المقاومة مما كانوا يتصورون. والواقع انه لولا الموقف الغريب لدولة الصفويين في فارس لما كان البرتغاليون جديرين بأن يحققوا شيئا الى جانب ما حققوه في الصدمة الاولى التي صدموا بها قرى الساحل العماني ومدنه.

وعاد البوكيرك الى جوا ليستقبل فيها سفيرا للشاه الصفوي اسماعيل جاء يحاول

زيارة اخري للتمويه على ملك البرتغال

ولدى عودة بيرو وتقديمه التقرير المرتقب الى عمه كان لا بد للبوكيرك من فعل شيء ما ليعوض به فشل وعوده الفضفاضة باقتحام البحر الاحمر في الوقت الذي كان العثمانيون فيه يعدون العدة لدخول مصر والتقدم العاجل بكل القوى البحرية السورية والمصرية والعثمانية، وسائر القوى الاسلامية الاخرى على سواحل البحر الاحمر للحيلولة دون تجرؤ البرتغاليين على حمى الاسلام وقدره أقداسه

ويقول كاتب مقال مجلة الجمعية الملكية إياه ان صوت النذير دوى في مصر سابقا لدخول العثمانيين لها عام ١٥١٧ فقد كانت الاستغاثات ترد الى الممالك من امراء الهند المسلمين كما كان لمصر علاقات تجارية متينة مع دول المسلمين المتعاقبة في الدكن وحيدر أبار وغيرهما. وبالفعل فان المصريين لم يفرطوا في اليقظة التامة حيال اي هجوم برتغالي في البحر الاحمر، فضلا عن ارسالهم قوة الى سواحل الهند لمعاونة المسلمين هناك ضد طغيان البرتغاليين وكل الذي استطاع البوكيرك ان يحققه بعد رجوع ابن اخيه هو خروجه الى هرمز في الوقت الذي كان يشيع فيه ان وجهته هي ميناء مخا كما انه لم يتورع ان يكتب الى الدون عمانوئيل ملك البرتغال رسالة يتهدد فيها بتنفيذ خطة تجمع قوة البرتغال الى قوة الحبشة لتضطلع بتدمير مكة.

ومع انه تقدم بوعده اكيد بأنه قاصد الى البحر الاحمر لتحطيم سلطان المسلمين فيه ولاحتلال ميناء مصوع ليكون قاعدة ومركز قلعة برتغالية.. الا انه مضى بسفنه الست والعشرين وعليها الفان ومئتا جندي برتغالي ومالاباري الى هرمز.

توسيع نطاق التحالف الفارسي البرتغالي، وكان واضحا ان الرياح في هرمز باتت تهب في غير الجهة التي تلائم البرتغاليين فقرّر البوكيرك ان يرسل تحت قيادة ابن اخيه بيرو حملة الى مدخل الخليج، وقد وفق هذا في نهب بعض المراكب التجارية العربية قرب سوقطرة لكنه فشل بعد وصوله الى هرمز في مايو ١٥١٤ حيث رفض شيخ الجزيرة تسليم القلعة للبرتغاليين أو دفع ما يدعونه عليه من متأخرات الجزية، وذلك ببساطة لانه لا يدين بالولاء لغير الشاه اسماعيل الصفوي.. وفي خريف ١٥١٤ عاد بيرو ليخبر عمه بسائر تفاصيل رحلته الفاشلة.

ان هذه الاحداث لا تترك مجالا للشك في ان الشاه الصفوي كان يتخذ من هرمز ورقة رابحة للتفاوض مع البرتغاليين لرفع مستوى الحلف فيما بينهما ضد الاتراك والعرب من سكان المنطقة، وذلك في وقت كان فيه البوكيرك يتحرق غيظا لتحقيق نتائج رنانة يمكن ان يرضي بها لشبونة ويسكت هناك حجج المنتقدين لسياسته.

أول اقتراب برتغالي من البحرين

ويبدو ان البحرين كغنيمة محتملة يستدر بها رضا المسؤولين في لشبونة، لا سيما حيال العجز الواضح عن اقتحام البحر الاحمر وتنفيذ التهديدات الفارغة ضد البيت الحرام بمكة، كانت لاول مرة تثير اهتماما عمليا من البوكيرك، ولهذا فقد تجول ابن اخيه بيرو^(٢٨) في المناطق الشمالية من الخليج بحيث كان اول برتغالي يزور البحرين زيارة سلمية لم يرافقها قتال من اي نوع ولا تركت من بعدها حامية في تلك الجزيرة... واغلب الظن ان الرجل ربما اقترب ببعض سفنه من الجزيرة مستكشفا لكنه لم ينزل فيها كما ترد الاشارة الى ذلك لاحقا.

ويتضح من الرواية البرتغالية ان رأيين متناقضين كانا يتصارعان في الجزيرة احدهما يدعو للانضواء تحت سلطة الصفويين، وليكن بعد ذلك ما يكون، والرأي الآخر كان اكثر استقلالية وكان يقر البقاء على مسافة من مطامع كل من الصفويين والبرتغاليين ما دام السبيل الى ذلك ممكنا.

ويبدو انه بنتيجة تلك الخلافات وجد شيخ هرمز سيف الدين نفسه معتقلا وتحت رحمة من عرف باسم الرئيس «حامد»، وان الاحوال الامنية والتجارية في هرمز كانت تعاني اضطرابا شديدا.

ويدعي لوريمير^(٢٩) ان هذا الزعيم المستجد في هرمز كان من دعاة الفرس في الجزيرة وانه وصل الى مركزه بالعنف والغدر لكن مركزه كان مهددا وضعيفا.

وما ان وصل البوكيرك الى مياه هرمز حتى فتح مدافع سفنه دفعة واحدة لارهاب الناس وبالفعل فان الرئيس حامد فهم الرسالة جيدا فبادر باطلاق سراح سيف الدين ملك الجزيرة الشرعي الذي بدأ مفاوضات مستفيضة مع البرتغاليين انتهت الى اتفاق شامل يجعله تحت حمايتهم، وبذلك ضرب البوكيرك عرض الحائط برضا الشاه الصفوي او سخطه مدركا ان ذلك الرجل المهدد تهديدا مباشرا من العثمانيين كان لا يجد له وسيلة سوى اللجوء الى البرتغاليين طالما ظل يريد مواصلة ملكه.

الشاه اسماعيل الصفوي

على اعتاب المعتدين

ويذكر ارنولد ان الشاه اسماعيل ارسل مندوبا للتفاوض مع البرتغاليين على اساس الامر الواقع الجديد في هرمز، وقد قبل في

مقابل موقفه الذليل وفقدان امله الاخير في السيطرة على هرمز الحسناء الغنية وعدا من البوكيرك بأن يساعده في غزو البحرين والقطيف وان يعاونه ايضا في قمع ثورة كانت تستعر ضده من سكان مكران الذين ذاقوا الويل من تعصبه الذميمة^(٣٠) وفيما يلي ترجمة حرفية لما يذكره ويلسون عن تلك الشروط:

(أ) على البرتغاليين ان يوفرنا للشاه اسماعيل ليغزو بها البحرين والقطيف.

(ب) وعليهم ان يقدموا مساعدات حسية للشاه لاجماد ثورة مكران.

(ج) على البرتغاليين الدخول في تحالف مع الشاه ضد الاتراك العثمانيين، وهكذا قنع البوكيرك بغنيمة هرمز وعين عليها بيرو ابن اخيه نائبا له واستخذي له شاه الصفويين في مقابل وعود بأن ينصروه على العرب والاتراك.

وليس من شك في ان البوكيرك احس بالمرض وهو يعود الى الهند خالي الوفاض من مجرد محاولة الهجوم على مضائق البحر الاحمر، وقد جاء موته في ديسمبر بنهاية نفس العام ١٥١٥ مخرجاً له من حرج بالغ نتيجة فشله في تحقيق تعهداته لملك لشبونة. ويعتبر ويلسون قدرة البوكيرك على التغلب على معارضي خطته من البرتغاليين اشارة نجاح له لكنه يرى ان البوكيرك ايضا وضع بيده بداية انهيار امبراطورية البرتغاليين التي ما كان لها ان تستمر وما قامت على غير البطش وابتلاع حقوق الغير، ونقض العهود.

المسرح السياسي في حوض الخليج لدى اجتلال البحرين

يقول^(٣٢) «وكانت ولاية ابن مغاس على الشرق عام احدى (يريد واحد) وثلاثين وتسعمائة للهجرة، فاستقبل بالبصرة الى ان استعان به بنو جبر (مقرن واخوانه) لضعف حالهم فقوى عليهم وأخذ منهم الحسا والقطيف وأعمالها وذلك لما استولى الاعداء الافرنج المخذولون على بلادهم وقتلوا سلطانهم الشيخ مقرن بن زامل بن حسين الجبري في سنة سبع وعشرين وتسعمائة».

ومعنى هذا اولا ان حياة مقرن الجبري انتهت الى كارثة لدى هجوم البرتغاليين على البحرين (١٥٢٢م) = ٩٢٧ هـ

وثانيا انهم استجدوا لدى كارثتهم بالرجل المتنفذ في البصرة فما كان منه الا ان انجدهم وحل محلهم..
والواقع ان الذي حصل بالضبط كما سنشرح لاحقا بالتفصيل هو انتقاص من سائر العرب في هرمز والبحرين والقطيف ضد محاولة البرتغاليين الاستيلاء على المراكز الجمركية ومباشرة حكم استعبدادي لسائر ممتلكات العرب والجبوريين من هرمز الى القطيف.

لقد بات واضحا لدى وفاة الفونسو البوكيرك ان محاولات البرتغاليين لاقتحام البحر الاحمر قد باءت بالفشل، كما انه كان واضحا بنفس القدر ان المعارك البرية المكلفة في الارواح والاموال بين العثمانيين والفرس لا بد ان تنتهي الى حسم نهائي قبل ان يصبح الاتراك خطرا على البرتغاليين في الخليج، وفي الوقت نفسه فان الجبور في الاحساء والبحرين قد اثبتوا ايام مقرن بن زامل انهم كانوا مؤهلين ليصبحوا قوة ملحوظة لولا ان الخلاف دب بين مقرن واخويه «مما أدى بهم الى الضعف وزوال الملك»^(٣٣) كذلك فان الوضع في البصرة حين آل الامر الى من سمي بسطان الشرق. الشيخ راشد بن مغاس بن صقر سلطان البصرة والاحساء والقطيف كان وضعها غامضا مفتوحا لمن يستطيع ان يثبت جدارته من ابناء القبائل، ذلك بأن الوضع الحربي بين الاتراك والفرس كان يجعل من قيام ادارة حازمة في البصرة لأي من الدولتين امرا صعبا، كذلك فان غارات البرتغاليين أدت الى انتهاك قوة الشيخ مقرن بن زامل. وهنا اورد ما يقوله الانصاري ايضا في وضع الجبور بعد تعرضهم لعدوان البرتغاليين واطماع سلطان الشرق راشد بن مغاس.

موقف الصفويين ؟

ومالبث السلطان سليمان التركي ان شن حربا على فارس فاقتحم جيشه جبال زاغروس واحتل بغداد ثم عاود الهجوم على فارس واحتل تبريز وقلعة وان ولم تتوقف الأعمال القتالية بين الدولتين الا عام ١٥٥٥ حين عقد صلح اتاح ضمان طريق الحج للحجاج الايرانيين واياها كان الحال فالمهم ان فارس كانت أضعف من ان تتدخل في سير الأحوال السياسية والعسكرية في الخليج .. حيث نرى المواجهة اولا بين العرب والبرتغاليين ثم تاليا بين العثمانيين والبرتغاليين معظم القرن السادس عشر .

احتلال البحرين - وثورة الجمارك

لقد رأينا كيف أن البرتغاليين ايام البوكيرك اقتصروا على تركيز نفوذهم في هرمز تاركين مختارين أو غير مختارين التعرض للعلاقات الداخلية لهرمز واحلافها أو اتباعها في البحرين والاحساء . ولكنهم أرادوا لاحقا أن يهيمنوا على سائر السياسات التجارية في الخليج ، وفي نطاق احتكارهم للسلع والطرق التجارية أرادوا ان تكون لهم كلمة الحسم في شئون الصادرات والواردات وأن يضعوا ايديهم على سائر الشئون الجمركية في هرمز والبحرين والقطيف . في عام ١٥٢٢ م أعلن لوبو سواريز نائب الملك البرتغالي الذي خلف البوكيرك في جوا والذي كانت الشئون الاقتصادية المحضة هي موضع اهتمامه الأول انه قد عين موظفين برتغاليين لضبط سائر الشئون الجمركية في هرمز والبحرين (وذلك يعنى القطيف ايضا) وفي صحار والقريات بعمان ، وقد وقع هذا الخبر وقع الصاعقة على سائر العرب ورؤسائهم من الجبوريين ..

ومن الواضح ان الملوك الصفويين قد وجدوا في تقدم العثمانيين على حدودهم في المناطق الشمالية بكاملها شاملا ذلك مناطق ديار بكر وأرضروم والموصل ، هما كافيا لهم ، وحيث انهم لا يملكون اية قوة بحرية ، وان البرتغاليين قلبوا لهم ظهر المجن في هرمز فقد اكتفوا كما ذكرنا أنفا بوعود برتغالية بأن يساعدوهم ضد العثمانيين وفيما كانوا يحلمون به من انتزاع بعض الاقاليم العربية في الخليج من الجبوريين كالبحرين والاحساء ..

لقد كان السلطان سليم الأول يتقدم بثبات مصمما على صرب المذهب الشيعي ورجاله ويقال انه أوعز^(٣٢) سرا بمذابح ضد الشيعة في الممتلكات العثمانية بلغ ضحاياها اربعين ألفا ، وقد استطاع الشاه اسماعيل ان ينجو من الموت بأعجوبة بعد هزيمته المنكرة امام السلطان سليم في معركة جالديران وعلى الأثر اصبحت كردستان وديار بكر ضمن مملكة العثمانيين الذين أثروا على التغلغل في قلب ايران أن يركزوا على ضم مصر حيث استطاعوا عام ١٥١٧ أن يستولوا ليس على مصر وحدها ولكن على شعارات الخلافة العباسية بما فيها بردة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تنازل آخر مدع عباسي للخلافة للاتراك عما يدعيه .

وفي عام ١٥٢٤ وبعد وفاة الشاه اسماعيل تولى مكانه الشاه طاهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) وعمره عشر سنوات وكان تحت رحمة جماعة متنافسة من شيوخ القبائل يتأمر بعضهم على بعض من أجل مغنم النفوذ وفي الوقت نفسه كانت القبائل تهدد الحدود الشرقية الفارسية تهديدا جديا حيث استطاعت قبائل الاوزيك الاستيلاء على هرات .

استعدادات البحرين ومقتل زعيم الجبور مقرن

وقد تبين ان المدافعين العرب بقيادة الشيخ مقرن الجبورى قد أحكموا استعداداتهم فبنوا سدودا كبيرة كما حفروا خنادق عميقة حسبما يتطلب الحال على امتداد الساحل وكان بين المدافعين ثلاثمائة فارس عربى وحوالى اربعمائة من رماة النبال وجيش من المشاة يبلغ احد عشر الفا مجهزين بأنواع متنوعة من الأسلحة وكان فى بعض الحوائط المبنية على الساحل قطع مدفعية وكان بين ضباطه رجال شجعان لكن مشكلتهم انهم لم تكن لهم أية خبرة سابقة فى حرب مع الاوروبيين تعتمد المدفعية البحرية ويرتدى جنودها دروعا واقية وبدأ البرتغاليون الهجوم ، وكان على رأسه القائد انطونيو كوريه ومعه مائة وسبعون من رجاله ومن خلفه اخوه على رأس خمسين برتغاليا آخر اما الرئيس زرافه (شرف الدين) فكان منتحيا جانبا كاحتياطى للجانب البرتغالى .

وقد خاض البرتغاليون المياه الضحلة وهاجموا التحصينات العربية التى وقف مقرن وجماعته يدافعون عنها دفاعا مستميتا ، وكان الحرب بالغ الشدة بحيث اضطر الفريقان ساعة الظهيرة للتوقف عن القتال حيث كان مما يشبه المستحيل الوقوف تحت سياط الشمس اللاسعة .

وفى المساء عاود البرتغاليون الهجوم وقد أصيب الشيخ مقرن بطلق نارى فى فخذه الامر الذى بعث اليأس فى نفوس رجاله بحيث بدأوا ييأسون ويستسلمون ، وقد قتل وجرح منهم جمع غفير ، وفى ساعة العتمة كان البرتغاليون قد حققوا انتصارا كاملا وبدأوا منذ ذلك اليوم من منتصف يونيو ١٥٢١ احتلالهم جزر البحرين .

ولاشك بأن الحاميات البرتغالية المحلية لم تكن ندا لعرب الخليج الذين تولى زعماء الجبور قيادتهم وهنا أود أن أقدم ترجمة حرفية لمقال مجلة الجمعية الملكية لاسيا الوسطى (٢٤)

الفتح البرتغالى للبحرين تم عام ١٥٢١

يستند مقال الجمعية الملكية الذى نحن بصددته الى معلومات البرتغاليين المباشرة عن أحداث الخليج ، وهو يجعل بداية الشرارة فى البحرين عام ١٥٢١ وليس عام ١٥٢٢ كما يعتقد لوريمير (٢٥) . ويقول كاتب المقال انه عندما طلب البرتغاليون من تابعهم حاكم هرمز أو شيخها بان يعجل بدفع الجزية السنوية التى كان تم الاتفاق عليها عام ١٥١٥ مع البوكيرك تذرع الشيخ بأن سبب تأخره فى الدفع عائد الى ان الشيخ مقرن (حاكم الاحساء) قد اصطدم معه بسبب البحرين والقطيف حيث اصبح يدعى تبعيتهما له مباشرة وعندها اقترح الحاكم البرتغالى بهرمز ديجو لوبيز سيكويرا ان يقدم مساعدة لحاكم هرمز على شكل حملة بحرية تنزل فى البحرين وتنتزع الجزية من سكانها . وبالفعل فقد عقد لواء الحملة لانطونيو كوريه ابن أخ الحاكم ووضع تحت امرته (٤٠٠) جندى برتغالى صعدوا فى سبع سفن كبيرة وحوالى ثلاثة آلاف من العرب فى مراكب صغيرة بلغت ألفى مركب ، وقد تحرك هذا الحشد الضخم من هرمز فى اليوم الخامس عشر من يونيو - حزيران ، ولكن سوء الأحوال الجوية أدى الى تفريق سفن الحملة بحيث انه حين وصل انطونيو كوريه الى البحرين لم يجد حوله سوى مائتين وخمسين جنديا برتغاليا وعددا قليلا من جنود هرمز العرب تحت قيادة الرئيس زرافه (شرف الدين)

نجاح الثورة في البحرين عام ١٥٢٢

وعلى العكس مما حصل في عمان وهرمز فقد نجحت الثورة في البحرين ذلك بأن الشعب العربى هناك كان يحتمل ضغينة هائلة ضد تصرفات البرتغاليين ومخططاتهم وكذلك ما قاموا به خلال سنة واحدة من بدء احتلالهم للبحرين . وقد تولى الثورة في الليلة الموعودة لها شيخ البحرين عندئذ حسين بن سعيد والذي قاد حملة كانت مفاجأة تامة لقلعة البرتغاليين وقد تم القبض على حاكم الجزيرة البرتغالى وشنق على الفور على شجرة نخل كما طرد الباقون على قيد الحياة من جنوده .

عندئذ تغيرت لهجة البرتغاليين في اتصالاتهم بالبحرين وأمكن بعد فترة هدأت فيها الخواطر ترتيب اتفاق مع البرتغاليين اقروا بموجبه صفة الشيخ حسين كحاكم عربى على البحرين مع موافقته في المقابل على استخدام برتغالى يدعى دى منزيس كمساعد ومستشار له . وبعبارة اخرى يمكن القول ان البرتغاليين استردوا سيادتهم على البحرين ولكن بأسلوب سلمى .

الثورة تتجدد في البحرين بنجاح عام ١٥٢٩

يستطيع المرء أن يتصور بسهولة عرضية الحياة تحت النفوذ البرتغالى ، ذلك بأن البرتغاليين اذا ما لجأوا للسياسة واللين فذلك دخول على طباعهم بما ليس فيها ، كما ان الهم الاساسى لضباطهم البحرين كان دائما الكسب الشخصى من ناحية الجاه في لشبونة أو المال الممكن ابتزازه في الشرق . يضاف الى ذلك ان حب العسف والتدمير وروح القتل والقسوة اصبحت شيئا من صلب السلوك البرتغالى . لقد كان من جملة

وقد علم الرئيس زرافة (شرف الدين) ان الشيخ مقرن توفي بعد بضعة ايام من اصابته وان جثمانه كان يجرى نقله الى الاحساء لدفنه ، فسارع واعترض السفينة التى تقل الجثمان ووضع يده عليه فقطع رأس القتيل المتوفى وحمله معه الى هرمز بحيث كان ذلك دليلا لنوال اذن من ملك البرتغال بوضع رأس ملك على سترته الحربية ، كما أضيف لاسمه لقب « بحريم » .

ويلاحظ كاتب هذا المقال أن رواية سقوط البحرين لا تتوفر الا من الجانب البرتغالى وأن بعض ما جاء فيها قد لا يكون صحيحا على الاطلاق ، وأيما كانت الأحوال فان جرح الشيخ الاحسائى مقرن كان له وقع الصاعقة على رجاله مما أفقدهم روحهم المعنوية وجعلهم يخسرون معركتهم بغير ضرورة .

ثورة الأهالي على البرتغاليين

وفي العام التالى ١٥٢٢ تمكن العرب بقيادة ملك هرمز من اعلان ثورة عارمة على البرتغاليين في كل مكان من الخليج وذلك في ليلة واحدة بالذات حيث اندلعت اعمال العنف في هرمز والبحرين ومسقط وصحار وقد حوصرت حامية البرتغاليين في قلعة هرمز ولكن نجدات برتغالية سرعان ما وصلت لها من مسقط حيث كان البرتغاليون يضعون احتياطيا من جنودهم ، وقد أمكن لهم فك الطوق عن القلعة ، ولما رأى شيخ هرمز ان الثورة لم تنجح في عمان انتقل على الفور الى جزيرة قشم حيث لاقى منيته قتلا هناك . وقد خلفه ابنه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة والذي حمل من البرتغاليين على عقد معاهدة جديدة معهم عمقت نفوذهم الى ابعد مما كان متغلغلا وذلك عام ١٥٢٣ .

ضحايا النجدة البحرية البرتغالية من الهند مدينة صحار العمانية التي دمرت تدميرا تاما فيما كان ذلك الاسطول يتوجه الى هرمز في صدد الاحداث التي انتهت بمصرع شيخ هرمز في جزيرة قشم .

من جراء ذلك كان امرا طبيعيا أن تتجدد الثورات كرد فعل لشراسة البرتغاليين . ويبدو ان هؤلاء لم يتذوقوا سلوك رجل يدعى شرف الدين في بلاط شيخ هرمز الصبى فقام البرتغالى لوبوفاز^(٣٦) باستدعاء سفن من الهند استخدمها بشراسة بالغة في ابتزاز الأموال من السكان العرب .

وظل البرتغاليون يحقدون على الرئيس شرف الدين الى ان قام مونودى كونوا حاكم المستعمرات البرتغالية الهندية بزيارة لهرمز فنفى شرف الدين منها لبتداء الى البرتغال . وعلى الاثر قامت في البحرين عام ١٥٢٩ ثورة عارمة ضد البرتغاليين وكان يحكمها في تلك السنة نائب لشيخ هرمز اتهمه البرتغاليون بالاثراء الفاحش فنفوه الى البرتغال ، وراحوا يطالبون سكان هرمز بضرائب أعلى من ذى قبل الأمر الذى جعل هرمز تحاول نقل بعض ذلك الضغط الى البحرين التى رفضت التجاوب مع ذلك الطلب .

في تلك الاثناء كان نائب الملك البرتغالى في جوا هو نونو داكنها الذى عمد الى تعيين تافرز داسوسا أميرالا للبحرية وذلك بقصد الشروع في هجوم على البحرين لكن داسوسا كان غير متحمس لتلك الحملة وقد استطاع اقناع نائب الملك بان يعين بدلا منه سيمون داكنها أخ نائب الملك نفسه . وظل الأخير ينتظر نجدات من البرتغال قبل ان توجه الى هرمز ومن هناك خرجت خمس سفن حربية كبرى عليها اربعمائة برتغالى تتبعها بعض السفن المحلية ولكن موجوداتهم من الذخائر كانت محدودة .

توجهت الحملة في سبتمبر من عام ١٥٢٩ أى في أشد ايام العام حرارة ورطوبة وأقل شهور السنة في الخليج موآاة للصحة ، وقد انفق من بالحملة نصف ذخيرتهم في اطلاق مدافع تحية لجزيرة البحرين يقصد بها ايضا الارهاب النفسى وكان شيخ البحرين قد رفع على برج حصنه علمين احدهما ابيض والآخر أحمر كأنما يقول انه جاهز للسلام ان شاء البرتغاليون وللحرب اذا اختاروا الحرب وكذلك كان تصميم البرتغاليين الذين ظلوا ثلاثة ايام يقذفون حمم مدفيعتهم على حوائط الحصن الى ان نفدت ذخيرتهم . في تلك الاثناء تقدم شيخ البحرين العربى بعروض صلح مشروطة لكن البرتغاليين ركبوا رؤوسهم لئلا يفوتوا على أنفسهم فرصة النهب ولهذا رفضوا العروض العربية . وارسلت سفينة الى هرمز لاحضار نجدات من الذخيرة وقد احتاجت الى اربعة عشر يوما قبل ان تظهر ثانية في مياه البحرين ببعض الذخيرة . وفي تلك الاثناء دبت الحمى بين جنود البرتغال والجنود الهرامزة الذين معهم على حد سواء وقد انتهت مؤنتهم فصاروا يستجدون الطعام من السكان العرب الذين لم يمنعوهم عنهم وهذه صفة من التسامح التى عرف بها المسلمون وتفوقوا بها على سائر الامم . وقد تبين ان خمسة وثلاثين جنديا برتغاليا كانوا هم كل القادرين على الاسهام في نشاط عسكري لذلك قرروا الانسحاب ، وقد جرى سحب المرضى الى سيف البحر بالحبال التى جعلت في ارجلهم حتى اذا ما وصلوا للقوارب حملهم ملاحون عرب والقوا بهم فيها وقد ساءت حالة الجنود البرتغاليين وهم على ظهر سفنهم في طريق عودتهم حتى مات اكثرهم بمن فيهم قائد الحملة سيمون داكنها الذى قيل ان الفشل كان سبب موته غيظا .

بداية انحلال البرتغاليين

وحادثة حرق البصرة

انفسهم في منتصف القرن السادس عشر يواجهون تهديدا خطيرا ومؤثرا من الاتراك العثمانيين الذين واصلوا تحسين امكاناتهم البحرية منذ تبين لهم مدى اهمية القوى البحرية منذ اصطدامهم الأول بالبرتغاليين اوائل القرن السادس عشر .

اهمية دخول العثمانيين مصر

عام ١٥١٧

لقد كانت المصالح التجارية لدولة المماليك في مصر ومدينة البندقية مصالح مشتركة ومتماثلة ، ولاشك انها اصببت بأضرار فادحة منذ هيمن البرتغاليون على الطريق التجارى التقليدى وحلوله من الهند الى رأس الرجاء الصالح ولم تتأخر مصر في العمل الفعال لصيانة البحر الأحمر من الخطر الكبير المهدق وذلك سابقا لدخول السلطان سليم اليها عام ١٥١٧ ، وقد سارع الاتراك الى ضم اليمن وبالتالي أصبحت هناك كلمة واحدة وقوة واحدة تجاه البرتغاليين في محاولاتهم ضد البحر الأحمر والاسلام في افريقية بل ومقدسات الاسلام في الحجاز .

وفي الوقت نفسه فان الاتراك الذين احتلوا بغداد لاحقا في عهد سليمان القانوني عام ١٥٣٤ بدأوا يمدون نفوذهم جنوبا باتجاه الخليج وكما ورد سابقا فان انشغالهم في مجابهات اخرى مع الدولة الفارسية في ديار بكر وأرضروم جعل سرعة تقدمهم الى مناطق القبائل العربية في جنوب العراق بطيئا ومحدودا .

لم يكن قد مر الآن سوى اثنتين وثلاثين سنة على اكتشاف البرتغالي فاسكودى جاما لرأس الرجاء الصالح حين بدت الامارات الأولى التى يعتبرها أهل الحصافة من الناس علامات انحطاط وشيك رغم المظاهر الخارجية الموحية بخلاف ذلك . لقد كان البرتغاليون حقا حتى هذا الوقت هم سادة البحر غير المنازعين في الخليج وكان لهم ما يدعونه من «غابات من السفن البرتغالية» وكانوا يحاولون أن يوجدوا جيلا جديدا من ذرية جنودهم وبحارتهم الذين أكثروا من الزواج من النساء الهنديات والشرقيات عموما لكى يخرج من ذلك الجيل البحارة والملاحون والجنود البحريون اللازمون للحفاظ على مجد البرتغال الدموى . لكن بؤادر انحلال قوة البرتغال كانت قد بدأت تظهر لكل ذى بصر فالحكام البرتغاليون خرجوا عن عادات البساطة وقوة الأسر وبدأوا يؤثرون الرفاهية والبذخ يسكنون افخم البيوت ويركنون الى الفرق الكبير بين خبرة واستبسال جنودهم وتفوق سلاحهم على الشعوب التى اصبحت لهم الكلمة العليا عليهم . لكن التجارب اثبتت ان غياب الرعاة عن القطيع لا يمكن ان يمر دون حدوث حوادث سيئة ، وازضافة الى ذلك فان اعتماد البرتغاليين المستمر فى الذخائر والتعزيزات البشرية والمادية على البرتغال نفسها بكل بعدها عن مسرح اعمالهم كان نقطة ضعف بارزة في تنظيمهم .

لكن أهم من ذلك كله أن قباطنتهم البحريين وكبار مسئوليتهم تحولوا من حكام الى تجار وهذه غلطة تحاشاها الانجليز فيما بعد تحاشيا تاما ولاشك بان ذلك اضعف كثيرا من فاعلية البرتغاليين بحيث وجدوا

البحرين والاحساء تتصلان بالعثمانيين

تشير المصادر البرتغالية الى أن ملك الاحساء وشيخ البحرين في عهد كان فيه كل منهما مستقلا قد بعثا عام ١٥٣٤ وهو نفس عام سقوط بغداد بأيدي الاتراك بوفد ليقدم التهانى والمودة لولى العهد العثمانى وان لم يلتزما باية تبعية للدولة العثمانية وكان ذلك الاتصال هو أول اتصال بين البحرين وتركيا ويرجع الاتراك ادعاءهم بالسيادة على البحرين الى هذا الحادث كأقدم اساس قانونى لذلك الادعاء .

غير أن بعض المصادر الغربية ونحن لا نملك سواها مع الأسف في هذا الموضوع يبرز موقفا مختلفا عن هذا لحاكم البصرة (٢٧) الذى لا يعرف ان كان فارسيا أم عربيا في تلك الفترة التى كان لفارس نفوذ مباشر على جنوب العراق وتقول هذه الرواية ان ذلك الحاكم قد اتصل بالبرتغاليين على أساس ان يعاونوه ضد شيخ عدو له في جواره من جنوبى العراق (لعل الاشارة تعنى شيخا من القبائل العربية الكبرى في جنوب العراق) . ويقول لوريمير نقلا عن مصادر برتغالية لا يذكرها ان ملشبور تافرزدى سوزا ارسل فعلا تجريدة عسكرية بحرية للتعاون مع الحاكم المذكور فيما يسميه (ضرب التجارة التركية) ولكن الشيخ المذكور لم يف بوعوده فانتقم دى سوزا باحراق مدينتين وهو في طريق العودة .

حملة بيروى رئيسى (بيروى بك)

فوجيء البرتغاليون لاحقا لسقوط بغداد بأيدي العثمانيين بقليل بظهور اسطول تركى بقيادة البحار التركى المشهور بير رئيسى يهاجم مسقط ويستولى عليها ثم يتحول بعد ذلك الى هرمز لكنه لا يصادف نجاحا مماثلا وقد توجه بعد ذلك الى البصرة

فيما يدعى البرتغاليون انهم شرعوا في مطاردته ، وكان مع بير رئيسى حاكم مسقط البرتغالى ويقال ان هذا الرجل قد قدم النصيح للاميرال التركى بأن يغادر البصرة بما حصل عليه من الغنائم قبل ان يضطر لمواجهة صعبة مع الاسطول البرتغالى الذى حشد قواه كلها وقد تمكن بير رئيسى من الخروج بثلاث سفن موفورة بالغنائم والاسلاب التى ظفر بها من البرتغاليين في عمان لكن احدى سفنه غرقت قبالة البحرين وعليها فيما يقال كنز ثمين ، وقد سخط السلطان على تصرفات رئيسى غير المسئولة فأجريت له محاكمة في اسطنبول فحكم عليه بالاعدام كما وضعت الدولة يدها على ثروة هائلة كانت تحت تصرفه .

وقد بدا واضحا (٢٨) انه كان من بين اعتبارات العثمانيين في التقدم ناحية البصرة هو الحيلولة دون نجاح الخطط المشتركة للفوس والبرتغاليين وكذلك استعادة السيطرة على طرق التجارة المهمة الممتدة من البصرة الى حلب ذلك بأن المناطق التى تعودت الافادة العظيمة من تجارة التوابل والحريروالبضائع الشرقية سواء في سوريا ام في المدن الايطالية ذات المصالح المشتركة مع بلدان الشرق الأدنى الاسلامية ، قد تضررت ضررا بالغا من النشاط البرتغالى ، ولعل هذا هو الذى يفسر ضخامة الحملة البحرية التى قادها سليمان باشا والى مصر عام ١٥٣٨ وتوجهت الى ديو في ولاية كجرات في الهند .

اشتداد الهجمات العثمانية

وفي خلال الثلث الثانى من القرن السادس عشر نجد جهدا مشتركا يمكن تسميته بالمجهود الاسلامى في وجه الغزاة

البرتغاليين ، فهناك اتصالات مستمرة وقوية بين عرب الاحساء والبحرين وبين العثمانيين الذين تقدموا الى ساحل الخليج خلال هذه الفترة عن طريق البصرة وشط العرب من ناحية وعن طريق الاحساء التي بعثت تستنجد بهم ضد عسف البرتغاليين فما كان منهم الا ان تجاوبوا وارسلوا حامية عسكرية الى القطيف .

ومن المؤسف ان روح الارتجال وحسن النية كان يسود التحركات العثمانية منذ بداية امرها ، ولو كان هناك برنامج واضح لتجميع موارد الثغور البحرية الاسلامية وتنسيق جهودها في اعداد اسطول كبير مشترك وكذلك تطبيق برنامج تدريبي صارم لاعمال الجهاد البحري اذن لكانت النتيجة جديرة ان تكون في صالح القوى الاسلامية ولأمكن طرد البرتغاليين واغلاق مضيق هرمز في وجوههم حتى برغم التعاطف والتحالف اللذين كانوا يجدونهما لدى الصفويين عموما . ولو حصل ذلك لتغير تاريخ الشرق كله .

وشئ آخر يعاب على الاتراك وهو ظاهرة أخرى من ظاهرات الانفعال العاطفي المقترن بالأعمال الارتجالية ففي تجاوبهم السريع مع دعوة النجدة التي وصلتهم من عرب الاحساء لم يقيم الاتراك بدراسات دقيقة عن احتياجات جنودهم من سائر النواحي وقضايا اسكانهم وعلاقتهم بالسكان البدو وموضوعات التحصين المستمر للسواحل المعرضة لمدافع البرتغاليين .. وقد أدى ذلك كله الى تمكن البرتغاليين من تدمير قلعة القطيف (٣٩) بل وتدمير البصرة ايضا كما سيرد ذلك مفصلا في هذا الفصل . وكانت البصرة قد اصبحت عثمانية اعتبارا من عام ١٥٤٦ (٩٥٣ هجرية) وكان ذلك أمرا مرتقبا بعد انتصارات العثمانيين في شمال ووسط

العراق .

ويمكن القول عموما ان وصول العثمانيين للبصرة كان ايدانا بدخول الصراع التركي البرتغالي مرحلة حادة جدا وان تلك المرحلة قد فجرت عواطف دينية ومشاعر قوية ، كما يمكن القول بأن التدهور المستمر في الاوضاع السياسية والاقتصادية لفارس في هذه الفترة عائد الى الموقف السياسي للصفويين كان يصادم مشاعر الأمة في حوض الخليج ، ويثير أمام الفرد المسلم متناقضات لا يستطيع ان يتعايش معها بسهولة ، ولا شك ان مصير مثل هذا الوضع هو ضعف السلطة المركزية المؤدى الى انهيار محتوم . ومهما قيل في موقف الاتراك والبرتغاليين فان الجانب المسلم كان الأقرب دوما الى الاسماح والتفاهم ما دام ذلك ممكنا .

ففى عام ١٥٤٧ وهو ثانی عام لدخول العثمانيين البصرة أرسل الى المدينة محمد باشا تاجرا يدعى الحاج فياض الى الحاكم البرتغالي في هرمز مناويل دى ليما يعرض قيام علاقات تجارية ودية بين الجانبين لصالح الجميع (٤٠) ، ويظهر ان ممثلا للبرتغاليين وجد في البصرة لمدة تقارب الثلاثة أشهر لكن تجاوب البرتغاليين ظل مترددا وعدوانيا في معظم الوقت حيث انهم كانوا يرون أن أية فائدة مادية تعود على غيرهم وكأنما هي انتزاع من جيوبهم التي كانت تحوى كل مال الخليج ومزاياه .

وحيث فشلت وسائل التفاهم فقد بات القتال محتوما ، ومع ان العثمانيين قاموا بسلسلة من المحاولات العسكرية البحرية وبعضها بالغ العنف ، لكن المهم هو النتيجة النهائية ، وهذه لم تكن في صالح الاسلام عموما .

ويمكن اعتبار الفترة من ١٥٥٠ - ١٥٦٢ فترة قتال ونزاع وحملات تركية متوالية

انتهت بمحاولات أخرى لمفاوضات ظن انها سوف تؤدي للاهتمام الى تفاهم على أرضية تتلاقى عليها مصالح الفريقين لكن البرتغاليين بعنادهم وطمعهم أضاعوا كل شىء ..

وصف برتغالى للبحرين ودلالته

ولدينا وصف ظريف للبحرين ضمن بعض رسائل البرتغاليين فى نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر نوره بنصه هنا لكى يدرك القارئ الروح التى كانت تحدو أولئك القراصنة وأبعاد النظرة المادية التى كانت تدفعهم الى الكسب بأية وسيلة .^(٤١) « ان البريم (البحرين) التى يعيش فيها تجار كثيرون وغيرهم من الناس الوافرى الثروات تمتاز بموقع فذ وسط الخليج (الفارسى) ويبحر لها العديد جدا من السفن التجارية الموقورة بشتى أنواع البضائع ومن حولها تتكاثر اصداف اللؤلؤ فى البحر من الأصناف الجيدة ، ويتولى تجار من البحرين ادارة عمليات الغوص على اللؤلؤ ويجنون من ذلك أرباحا ضخمة .. ويأتى الى البحرين تجار من هرمز لشراء اللؤلؤ وبالتالى بيعه فى الأسواق الهندية .. ومن صفات جزر البحرين أيضا تعدد ما فيها من الفواكه ، ونباتات المياة العميقة المالحة والتمور والصقور والقمح والشعير والخيول .

والحقيقة ان سائر غرائز البرتغاليين لجمع المال بأى سبيل قد وصلت نهاية المد فى منتصف القرن السادس عشر ، ففى عام ١٥٤٢ وضعوا أيديهم نهائيا على جمارك هرمز لتكون لهم بالكامل وذلك بالكيفية التى يصفها ويلسون مبينا حقيقة أخلاق البرتغاليين وجشعهم الذى لا يقف عند حد ، يقول بالنص^(٤٢) .

« وفى عام ١٥٤٢ ، ونتيجة صعوبات

نشأت أمام ملك هرمز حالت بينه وبين الاقتدار على دفع متأخرات الجزية للبرتغاليين والبالغة نصف مليون دوكات وبالنظر لاقتناع نائب الملك البرتغالى مارتيم افغونسو بعجز ملك هرمز عن الدفع ، فقد وافق على صرف النظر عن سائر المتأخرات مقابل اجبار ملك هرمز على تسليم كل ما يتعلق بالجمارك الى البرتغاليين منذ تلك اللحظة . على ان الموظفين المحليين تركوا فى اماكن عملهم ، وتم الخلاص نهائيا من حكاية متأخر الضرائب حيث أصبح البرتغاليون هم مأمورى الجمارك التى آلت لهم بحكم الممارسة الفعلية والأمر الواقع .

وعلق ويلسون على هذا الحدث بقوله ان سلوك فاريا دى سوزا الغريب حيال هذا الحادث يلقي ضوءا جانبيا مشوقا على سوء الادارة البرتغالية واعمال التنافس على النهب بين الموظفين البرتغاليين . بسبب ذلك كله اتسمت الأعمال الحربية بين البرتغاليين والاتراك بسمة الانتقام المدبر والتدمير ، وقد لعب بير رئيسي أمير البحر التركى كما ذكرنا من قبل دورا بارزا ولكن قومه الاتراك اتهموه بأموور ربما كانوا محقين فى محاسبتها عليها لكن احدا لم يروع البرتغاليين ويشعرهم بالهزيمة والتضاؤل مثل ذلك الرجل الذى ما يزال يتمتع بين الاتراك حتى هذا اليوم بشعبية اسطورية . واذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فان البرتغاليين يشيرون بأى واضح الى تمكن بير رئيسي من أسرقائد وسائر أفراد حامية مسقط البرتغالية واذا كان قد فشل فى اسقاط قلعة هرمز الحصينة الا انه نزل بالجزيرة وخيم بها وأخضعها لمدافعه وتحركات جنوده الى ان غادر الجزيرة بمحض ارادته ليحتل جزيرة قشم ويفعل هناك ما يشاء ..

وليس واضحا ما اذا كان تعيين مراد بك

النوعى لسفنههم ومدفيعتهم ولذلك باتوا ينشئون صداقة مع كل من هو على استعداد للتفاهم معهم ، ولقد افلحت هذه السياسة عندما هاجم دى نورنها القطيف بداية الخمسينات كما ذكرنا سابقا حيث هرع جماعة مائة للعرب ومن انصار البرتغاليين لنجدة الغازى الكافر كذلك نجد القصة تتكرر في المعركة العنيفة التى دارت سجالا معظم عام ١٥٥٩ وكان فيها انحياز من قسم من الأهالى بقيادة الرئيس مراد صنيعة البرتغاليين الى أولئك الاعداء فيما كان معظم السكان يشجعون الهجوم التركى على الجزر .

لقد كان الاتراك على علم بما يقاسيه الناس في البحرين من ظلم البرتغاليين وعسفهم ومصادراتهم لذلك وصل اسطول تركى عام ١٥٥٩ مؤلف من بارجتين وسبعين سفينة شرعية ولا شك ان العديد من الجنود كانوا عربا من البصرة والاحساء ، ويقدر أولئك بألف ومائتى جندى وفى الحال طلب الرئيس مراد مساعدة البرتغاليين في هرمز فوافوه بقوة كبيرة انضم لها ثلاثمائة فارس حسنى التسليح من جماعة مراد وقد الحق بالبرتغاليين خسائر فادحة لكن المشكلة كانت في موضوع القدرة على مواصلة خطوط التموين الأمر الذى اضطر الاتراك في النهاية الى قبول مصالحة غير مشرفة ..

ولا يذكر أحمد جودت مؤرخ الدولة العثمانية أية معلومات شافية أو تفصيلية تخالف كثيرا ما ذكرناه أنفا ولكنه في الواقع يعترف ^(٤٤) بأن الحرب مع البرتغاليين كانت سجالا وانهم كانوا يتمتعون بأسطول قوى وتقاليده بحرية ممتازة .

ويشيد من الناحية الأخرى ببطولة بير رئيسي وعلى بك وينعى سوء حظ الاسطول العثماني في المحيط الهندي بسبب

الذى كان من قبل قائدا لحامية القطيف التركية التى دمرها دون انطونيوى نورنها عام ١٥٥٠ بمساعدة بعض المهندسين بين السكان العرب من انصار البرتغاليين ، كان ، أى ذلك التعيين له علاقة باعدام بير رئيسي الذى عرف كيف ينتقم لهزيمة مراد بك بما فعله في مسقط وهرمز وقشم وعلى أية حال فان مراد بك لم يكن أوفر حظا منه في المرة الأولى ، لقد حاول عبثا انقاذ سمعته بهجمات غير موفقة على الاسطول البرتغالى . ويبدو ان الاتراك ندموا على مجمل موقفهم من فئة البحارة المغامرين من تلامذة خير الدين بربروسا الذين تعلموا فروسية البحر في ساح الذود عن شرف الاسلام بين سواحل افريقيا والاندلس . ولهذا جىء بعلى شلبى الذى يسميه لوريمير (القرصان المتبحر) وقد مر وصف البسالة التى أظهرها ذلك البحار العالم المجاهد في المعركة الجبارة التى خاضها ضد قوة أكبر بكثير من قوته قرب مسقط وخسر فيها بعض السفن لكنه خرج بقوته الباقية مجتمعة الى صورت .

وفي الوقت الذى يجد فيه لوريمير مشقة بالغة في تسمية التحركات التركية بأنها انتصارات نجد كاتب مقال المجلة الملكية الاسبانية ^(٤٥) يقول بالحرف الواحد : « وفي السنوات التالية (يعنى الخمسينات من القرن السادس عشر) سجل الأتراك انتصارات عديدة في الخليج » .

«لقد فتحوا قشم ودمروا البرتغاليين فيها ودخلوا مسقط ظافرين مرتين وإن اضطروا في الحالين للخروج تحسبا من الحصار ، كما نزلوا بهرمز وضربوها» .

الصراع الى البحرين

لقد بات واضحا ان البرتغاليين اصبحوا اكثر خبرة من ان يركنوا الى مجرد التفوق

العواصف العنيفة التي حطمت العديد من سفنه هناك في غير مناسبة واحدة .

عصر التهيؤ البرتغالي للسقوط

١٥٨٠ - ١٦٤٠ م

يمكن تسمية السنوات الستين التي انقضت فيما بين ضم اسبانيا للبرتغال وبين طردهم نهائيا من عمان وخسرانهم سائر مراكزهم الهامة في الخليج بعصر التهيؤ البرتغالي للسقوط . وتعتبر هذه الفترة استمرارا للوجود البرتغالي في الاندفاع بقوة الدفعة الأولى لوجودهم (١٥٠٨ - ١٥٨٠ م) .

ولا شك ان سقوط البرتغال تحت السيادة الاسبانية قد افسد معنويات البرتغاليين واحساسهم بالعزة وضعضع فيهم نهائيا روح المبادرة والاستيلاء ، ويمكن اعتبار معظم الفترة الحالية فترة احتضار للتفوق البرتغالي خصوصا بعد تبدل الأحوال في عمان بقيام دولة اليعاربة واشتداد قوة الانجليز والهولنديين ومناقصتهم الناجحة للبرتغاليين في موالاة الدولة الفارسية وفي اسلوب التعامل التجارى ، فضلا عن تمكن القوة المشتركة للبلدين بالتعاون مع السكان المحليين على جانبي الخليج من استبعاد البرتغاليين من مراكزهم الهامة التي كانوا تجذروا فيها ولا سيما هرمز .

ولعل من المناسب استعراض الأوضاع في حوض الخليج خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر بداية ضعف البرتغاليين في عمان ظلت الأحوال تتدهور الى الأسوأ وذلك منذ ظهر في البلاد امامان في وقت واحد وهما بركات بن اسماعيل وعبدالله بن محمد القرن (٤٥) ، وذلك قبل ان ينجح أولهما في اخراج الثاني من حصن بهلا سنة ٩٦٨ هـ الموافق ١٥٦٠ ميلادية . وظلت البلاد بعد هذا الرجل بغير امام الى ان ظهر

الامام ناصر بن مرشد أول أئمة الأسرة اليعربية في عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) وخلال هذه الفترة تحسن نفوذ النباهنة (النيهانين) ولكنهم لم يصلوا بأوضاع البلاد الى ما يمكن ان يشكل أى خطر على غزاة الساحل المحتلين من البرتغاليين غير ان صورة الوضع الداخلى كانت صورة حزنة من الخصومات الصغيرة التي لا تتوقف بحيث لم يكن يرجى أى أمل من هؤلاء لتدبير جهد قوى بما يكفل طرد البرتغاليين ويعطينا السالمى صاحب كتاب (تحف الأعيان المبرهن لسوء أهل عمان) صورة مفاجئة عن مدى تدهور الأوضاع السياسية عندئذ بعمان فيقول بالحرف الواحد :

(٤٦) « ولبت سيف بن محمد الهنائى في بهلى ، وآل عمير في سمائل ومالك بن أبى العرب اليعربى في الرستاق ، والجبور في الظاهرة ، والنصارى (البرتغال) في مسقط وصحار وحلقار وصور وقريات

وهكذا خربت عمان بعد العدل والأمان وعاشت الجبابة .. وظل الحال على ذلك الى ان أظهر الله تعالى الامام الأرشد والهمام الأماجد امام المسلمين ناصر بن مرشد . »

فى البحرين والإحساء

المعلومات المتعلقة بالبحرين بعد فشل الحملة التركية عام ١٥٥٩ تصبح قليلة ، والواقع ان هناك حقيقتين واجبتى الوضوح قبل فهم التغير الذى طرأ على السياسة العثمانية التركية .

أولا : ان اهتمام الاتراك بولاية الاحساء والانتشار فيها تراجع كثيرا عن ذى قبل ذلك بأن كلفة ادارتها والاحتفاظ فيها بأية قوة عسكرية كبيرة هى أكبر بكثير من اية أموال يمكن ان تصور جمعها على سبيل الضرائب .

وأما الحقيقة الثانية فهى ان الاتراك كانوا محتاجين ماليا لتشغيل ميناء البصرة

وضمان حركة تجارية مريحة فيه لتغطية جزء من نفقاتهم الادارية في اراض كان قد اصابها بوار مهلك من طول تركها مهملة ولذلك فهم اعتبارا من عام ١٥٦٢ جنحوا الى سياسة أكثر مسالمة .

ويرد في رسالة نشرها صالح أوزبران من جامعة اسطنبول^(٤٧) (كلية الآداب ١٩٧٨ بعنوان رسالتان من دوم الفارو دى نورنها من هرمز) الى أن النشاط التركى في صدد التسهيلات التجارية المتبادلة بين البصرة وهرمز كان موضوع رسائل أكثر بكورا من ذلك ويقول نورنها ما يلى : « وفيما يتعلق بتجارة البصرة - هرمز ، واهتمام العثمانيين بها فان الفارو كتب يقول : « وعلى سبيل المثال فالعثمانيون في البصرة أرسلوا عدة رسائل الى دوم مانويل ، ومنذ وصولي الى هنا جاءت رسالة اخرى من الاتراك ورفعت الى صاحب السمو وفيها يطلب الاتراك ان تظل التجارة مفتوحة ومن جانبهم يؤكدون انهم سيلتزمون بعدم التعرض لها على الاطلاق . لكن الدوم مانويل لم يرد على هذه الاتصالات فقد كانت سياسة البرتغاليين ما تزال باقية على حالها وان كان الفارو شخصا يقدر تماما مزايا استمرار تجارة البصرة » .

بواد ندم فى الجانب الفارسى

يبدو ان الجانب الفارسى في الحلف الفارسى - البرتغالى القديم بدأ يتشكك في صواب السياسة التى سلكها في مجمل الأحداث منذ بداية القرن ، فقد اصبحت هرمز وجماركها بل ومعظم تجارة الخليج في أيدي البرتغاليين الذين لم يكونوا على استعداد لمشاركة احد في غنائمهم وعلى العموم فان نهاية القرن شهدت برودا حقيقيا في علاقات فارس بالبرتغاليين وذلك يعود لأسباب كثيرة منها بداية ظهور عناصر

أوربية أكثر استعدادا لانشاء علاقات متوازنة مع بلاط طهران . ولقد كان الشاه عباس الذى اعتلى سدة الحكم عام ١٥٨٧ ينظر بحقد الى حيازة البرتغاليين لهرمز وسائر مزايا مينائها وجماركها . وقد تطورت الأمور كثيرا بوصول بعثة الاخوين الانجليزيين شيرلى عام ١٥٩٨ فقد استطاعا اقناع الشاه بمزايا تحسين علاقاته مع الأوربيين . وشتان ما بين الروح الصلبة الرجعية المتعصبة للبرتغاليين وبين مرونة الانجليز وحسن مدخلهم في الأمور وفى التالى يظفرون بحصة الأسد بعد مرور فترة على شهر عسل أولى علاقاتهم بالدول الشرقية .. أما البرتغاليون المتعصبون فلا هم لهم في الواقع سوى الابتزاز وحلب أشطر الضحية الى آخر قطرة .

تفاقم أوضاع البرتغاليين

والواقع ان مما أياأس الفرس من حلف البرتغاليين أيضا ان موجة من الدعاية الكاسحة بدأت تعم كل جهة تسم البرتغاليين بالغزاة الكفرة ، وحيث ان العثمانيين بالتفاهم مع العرب قد أججوا مشاعر لم يكن في وسع الفرس وهم مسلمون أيضا أن يتجاهلوا ويعترف كاتب المجلة الملكية الآسيوية بأن الأحوال ساءت تماما مع البرتغاليين اعتبارا من ١٥٨٠ وهذه ترجمة لما يقوله :

^(٤٨) لقد بدأت قوة البرتغاليين تذوى بوضوح لا مراء فيه اعتبارا من سنة ١٥٨٠ ، والسبب الرئيسى هو ضم البرتغال لاسبانيا الذى دام سنتين . لقد كانت هذه حقبة مأساوية في تاريخ البرتغاليين في الهند والخليج على السواء فقد

المستوى وعلى ضوء الأحوال الأمنية وعلاقات الموداعة أو العدواة بين الاتراك والبرتغاليين .

نكسات برتغالية فى الخليج

وجه الاتراك حملة الى مسقط عام ١٥٨١ بقيادة اميرال تركى يدعى على بك وقد عملت المفاجأة عملها فى ترويع البرتغاليين حين وجدوا انفسهم يواجهون هجوما مشتركا من البر والبحر فتخلوا عن قلعتهم وفروا متراجعين الى داخل عمان وقد فشل البرتغاليون فى توفير رد مناسب على تلك الحملة .

كذلك اصيب البرتغاليون بضربة موجعة من السكان العرب فى نخيلوه حين نزلوا هناك عام ١٥٨٥ لينفذوا كما كانوا يعلنون سلفا ، عملية تأديبية هناك لما يدعونه على السكان المحليين من تعويقهم لأعمال موردي المؤن الى هرمز ، لكن البرتغاليين فوجئوا بكمين كان معدا لهم بعناية على طريقهم الى البلدة وبالفعل قتل منهم أكثر من مائتين وخمسين رجلا قبل ان يتمكنوا من التقهقر الى سفنهم ، وكانت تلك ضربة أخرى موجعة لنفوذ البرتغاليين .

ويذكر لوريمير^(٤٩) ان البرتغاليين عمدوا عام ١٥٨٦ الى انشاء قلعة اضافية ضخمة فى مسقط وربما كان لذلك علاقة بهجوم الاتراك المفاجئ عليهم قبل ذلك بخمس سنوات لكنه يظل دليلا على احساسهم بالضعف .

بداية العد التنازلى للنفوذ البرتغالى

ليس هناك أدنى شك فى ان خضوع البرتغال لاسبانيا اعتبارا من عام ١٥٨٠ أضر كثيرا بحماسة البرتغاليين للحياة والانتشار والنفوذ ذلك بأن الحكم الاسبانى

راح يهددهم كل من الترك والهولنديين والانجليز والفرنسيين الذين راحوا يتخاطفون امبراطوريتهم قطعة بعد أخرى .

ولم يعد فى وسع البرتغاليين القيام بنفقات حامياتهم وكلفة الاستمرار بها ، وفيما كانت كمية التعزيزات ونوعيتها يتناقصان باستمرار كان العرب والفرس يزدادون جرأة فى مقاومة طغيان المستعمرين الكفرة ، وكذلك هبطت سمعة الاسطول البرتغالى وبعد ان كان قباطنة البرتغاليين الأولون يبحثون عن معارك يخوضونها أصبح قصارى مهارة القباطنة الجدد أن يتلافوا المصادمات البحرية ، وبدلا من ان يركز الضباط اهتمامهم فى القتال والشئون العسكرية بات انشغالهم الأساسى فى ممارسة التجارة والتماس الثروة .

وبعد ان كان الضباط البرتغاليون لا يلقون بالا لكل مزايا استمرار تجارة البصرة - هرمز فانهم فى عام ١٥٦٣ تجاوبوا مع رغبة والى البصرة على باشا وبعثوا بأنطونيو تكسيرا الى اسطنبول لكن السلطان العثمانى اتخذ موقفا غير متوقع باصراره على انه اذا كان البرتغاليون هم الطالبين الراغبين فى استمرار تجارة البصرة - هرمز فعليهم ارسال مندوب على مستوى رفيع الى البلاط العثمانى لاعلان رغبة بلاده علنا . وفى الواقع فان النشاط التجارى لم ينقطع ولكن على تفاوت فى

كان حكما مركزيا رجعيا الى أبعد الحدود ، وعلاوة على ذلك فقد هزم الاسبان هزيمة منكرة أمام اسطول الانجليز المؤلف من سفن سريعة صغيرة فيها رجال أشد حماسة للنصر من قباطنة الملك الاسباني وقد أضرت تلك الحرب أضرارا بالغيا بسمعة الاسبان ، ووضعت حجر الأساس لنهوض الانجليز ودخولهم حلبة التنافس الدولي من أجل الهيمنة الخارجية والاثراء التجارى الضخم .

وقد بدا واضحا منذ عام ١٦٠٢ ان حالة البرتغاليين في انحدار محتوم وذلك لدى طردهم من البحرين . وبعد ذلك بسنتين أى ١٦٠٤ اصبح البرتغاليون الذين كانوا لا يأذنون لسفينة بالحركة في الخليج الا برخصة منهم محرومين من الاقتراب من عدة مواقع خليجية هامة مثل ريق (ريج) ونخيلوه ولكن دعنا نتوقف الآن عند خروجهم من البحرين .

طرد البرتغاليين من البحرين

١٦٠٢ م

ازداد التذمر جدا في البحرين من تعسف البرتغاليين ويذكر احد الكتاب المعاصرين (٥٠) بأن حاكم البحرين عندئذ كان من أقارب ملك هرمز وكان يعامل الناس معاملة غاية في الشراسة والنكاية والابتزاز وقد بلغ عسفه الذروة عندما قتل تاجرا بحرينيا ثريا ومعدودا من خيرة الوجهاء فضلا ، وفي الحال وضع حاكم البحرين يده على سائر ثروة القليل من اللؤلؤ وفيها مجموعة من اللآلئ الممتازة النادرة الوجود .

ومع ان مقتل ذلك الوجه قد اثار موجة أسى عميقة الا ان الناس كانوا مشبعين بارهاب البرتغاليين وشدة عسفهم فتهيّبوا من اشعال الثورة وكان للتاجر القليل أخ

محب للغاية وقد كتم مشاعره وراح يتودد الى الحاكم قاتل أخيه بحيث تمكن من كسب ثقته كسبا تاما مما أعطى الرجل الموتور فرصته الممتازة فانتهرها وقتل الحاكم بخنجر وعلى التو أعلن نفسه حاكما للبحرين وقد تداعى لتأييده معظم سكان الجزيرة وقد تغلب الأهالى على حامية القلعة البرتغالية واحتلوها ووردتهم نجدة من أمين دولة شيراز بقصد المساعدة واعلان الجزيرة تابعة لايران .

وكان البرتغاليون والايروانيون حتى ذلك الحادث يحتفظون بمودة شكلية مصطنعة فيما بينهم حيث لم يعد خافيا ان الانجليز كانوا قد بدأوا يتغلغلون بمهارة وهدوء في الأوساط الحاكمة في طهران .

ومن غرائب المصادفات ان وفدا برتغاليا كان لدى سقوط البحرين يزور طهران ليجس نبض الشاه في امكانية ابرام حلف بين بلديهما ضد الاتراك وكان الدافع الحقيقى وراء هذا العرض البرتغالى هو احساس البرتغاليين بالمزاحمة الخطيرة التى راح الهولنديون - الوافدون البروتستانت الجدد - يضيّقون بها الخناق على التجارة البرتغالية في الهند والخليج بل وفي كل مكان .

وقليلا ما كان يخطر ببال البرتغاليين ان الانجليز أيضا لهم خططهم وان تلك الخطط كانت تعتمد صداقة فارس محورا لها . وكان لطمة للبرتغاليين ما حصل في البحرين بحيث احتج البرتغاليون على « مساعدة ايران » لثوار الجزر وبالتالي وضع اليد عليها ، وقد رد الايروانيون بأنهم لم يستولوا على جزيرة يحكمها البرتغاليون وانما كان يحكمها قريب ملك هرمز العربى متجاهلين نفوذ البرتغاليين في الجزر .

محاولات برتغالية لاسترداد البحرين

وكانت البحرين من الأهمية بحيث ان

البرتغاليين رغم كل أحوالهم المتراجعة وظروفهم الصعبة اخذوا قورا في التخطيط لاسترجاعها ، ولذلك عين حاكم هرمز البرتغالي والمدعو دون بيدرو كونتينو احد ضباطه المسمى الكابتن فرانسيسكو سوتو ماجور قائدا لقوة مختلطة من البرتغاليين والهرازمة للحيلولة دون قيام الايرانيين بانزال المزيد من جنودهم في البحرين وكذلك اعادة احتلال الجزر وقد وصلت عدة سفن حربية كبرى من الهند للانضمام لهذه القوة واكمال تشكيلاتها كما وصل جنود كثيرون من هناك ايضا الا ان القوة القادمة من الهند تحت قيادة الدون جورج صاحب قلعة برونو كانت اضعف بكثير من المتوقع كما كانت سفنها ناقصة من ناحية الرجال ، ومن هنا عكف حاكم هرمز على تلافي سائر تلك النواقص لكن أعداءه في بلاط البرتغاليين بجوا لم يمهله لينجز خطته فقد تمكنوا من استصدار أمر بطرده دون ان يعطى أية فرصة للدفاع عن نفسه .

وقد جاء بعده لحكم هرمز رجل يدعى ديازبراتو وكان رجلا دائم المرض ، تبين له عند استلامه السلطة بأن قوات البرتغاليين كانت مستنزفة بسبب انتشار الأمراض فيها من جهة وبسبب كثرة من يحولون منها لمحاربة الهولنديين وقد ناضل مساعده المباشر جاسبر دى ميللو لتجهيز الحملة المستهدفة للبحرين لكنه لم يصادف نجاحا أيضا .

ولدى سماع شاه ايران عباس ان البرتغاليين يعدون لاستعادة البحرين أرسل قوات من خمسة آلاف رجل بقيادة أمم سلطان لتهديد حامية البرتغال في جمبرون (بندر عباس) وذلك لتحويل انتباههم عن البحرين وفي الحال أرسلت البعثة البرتغالية في طهران رسالة تحذير الى حاكم هرمز بآلا يقوم بما من شأنه افساد جو المفاوضات

بينهم وبين ملك فارس .

ويدعى البرتغاليون ان عباس خلال تلك المفاوضات اصدر أمرا بأن تعاد البحرين لهم ولكن ذلك الأمر لم يأخذ طريقه الى التنفيذ .

وحيث وقعت حركة تمرد في جمبرون (بندر عباس) ضد الحامية البرتغالية هناك فان مجرد التفكير في عمل ضد البحرين لم يعد واردا في أذهان البرتغاليين الذين ظلوا يتهددون بالكلام ان يستعيدوها لحكمهم مهما طال الزمان وعلى كل حال فقد كانت هناك مقترحات سخيفة كوسائل الرشوة والتخريض لاستعادة نفوذ البرتغال تدور في أوساط الحاكم البرتغالي لهرمز الذي كان فيما يبدو قليلا ما يتصور انه هو نفسه سيطرد وان هرمز سوف تسقط لغير البرتغاليين عام ١٦٢٢ .

بداية الدور الانجليزي

فى الخليج عام ١٥٩٨

بعد حقبة من انتصار السفن الانجليزية الصغيرة السريعة على الاسطول الضخم الهائل لاسبانيا عام ١٥٨٨ في موقعة الارمادا الشهيرة ، التى لعب المناخ فيها دورا بالغ الفائدة للانجليز بهبوب عواصف عاتية في وجه سفن الاسبان الكبرى دفعت بها الى سواحل ايرلنده واسكتلنده فأكملت بذلك عمل المهاجمين المستميتين من بحارة الانجليز الطامعين في نهب خيرات ذلك الاسطول الكبير ، نقول بعد عشر سنوات فقط كانت طليعة من الانجليز مؤلفة من اخوين شقيقين هما روبرت شيرلى وانتونى شيرلى وصلا الى منطقة قزوين ومعهما كوكبة من الفرسان الانجليز عددهم ستة وعشرون رجلا وقدموا انفسهم لخدمة الشاه .

وقد اندفع الشاه عباس كثيرا في ثقته

بهؤلاء النفر من (٥١) الانجليز بالرغم من استياء قبائل القزلباش الذين كانوا يشكلون العمود الفقري في جيشه ، الأمر الذي حدا بالشاه لقبول نصائح شيرلي في اعادة تشكيل جيشه على أسس عصرية مع الاتصال بالغرب المسيحي وتوثيق علاقته بهم .. وكان هم الانجليز من البداية المباحدة ما بين الاتراك والاييرانيين ليتسنى لهم الوصول الى أهداف مستقبلية طموحه كانت قمة مخططهم الاستعماري في الخليج .

وبطبيعة الحال فان الانجليز اختاروا وقتا ملائما لخططهم ضد البرتغاليين والاتراك على حد سواء ، ذلك بأن الاتراك كانوا قد وصلوا في تقدمهم في ايران عام ١٦٠٢ الى نهاوند كما كانت تفليس وتبريز وغيرهما من مدنهم في قبضة الاتراك .

والواقع ان الاتراك كانوا ينشدون وضعاً مستقراً مع ايران خصوصاً بعد اشتداد المواجهة بينهم وبين البرتغاليين أواسط القرن السادس عشر ، ولكن الايرانيين كانوا يفضلون التفاهم مع الغربيين .

الدور الانجليزي

ضد البرتغاليين والاتراك

اندفع الشاه عباس كثيراً وراء منطق شيرلي فأصدر فرماناً يعطى المسيحيين حرية تامة في ايران فلم ان يتاجروا ويتصلوا بالناس وينشئوا أية علاقة مع رعايا ايران .

وبينما توجه انطوني شيرلي الى العواصم الأوروبية للتبشير لحركة التقارب المسيحي الايراني كان أخوه روبرت يتولى تدريب جيش جديد للشاه ويباشر الممارك ضد العثمانيين باعتباره القائد العام للجيش الفارسي وهي بادرة استغلها الانجليز حيثما وجدوا خلال عصرهم الاستعماري من جراء النجاح الذي أحرزته على يد روبرت

شيرلي ..

وقد قام روبرت هذا بزيارة للندن ومدير دوارسو وغيرها من العواصم الأوروبية منادياً كأخيه بسياسة الضغط على الاتراك وتشجيع تقدم الايرانيين لتصبح حدودهم متصلة بحدود الغرب المسيحي .

ولم يخف على مدريد أبعاد الخطة الجهنمية التي كان يعد لها الانجليز ففي الوقت الذي كان شيرلي يزور مدريد ، أرسلت توجيهات من الملك فيليب الثالث ملك اسبانيا الى قيادة حامية هرمز بضرورة تحصين القلعة البرتغالية في الجزيرة تحصيناً تاماً كما أوعز بالقبض على شيرلي اذا ما أوقع نفسه في قبضة البرتغاليين .

والحقيقة ان سوء الظن كان وارداً على الدوام فقد حدث ان مر الانجليزى فتش بهرمز ومعه ثلاثة من زملائه في بعثة تجارية الى الشرق شاملاً ذلك الصين لدراسة أسواق الحرير والتوابل والتعرف على أوضاع القوى في المناطق الشرقية ، فقام البرتغاليون بالقبض عليه وسجنه .

وفي عام ١٦٠٨ بدأت شركة الهند الشرقية البريطانية تأسيس أول مركز لها في صورات بالهند حيث جرى اتصال ودي مع امبراطور المغول ارتكب بسببه الامبراطور أكبر حماقة ارتكبها المسلمون الهنود بتشجيعهم العدو الذي احتل بلادهم وأذلهم في مقبلات الأيام .

وفي الوقت نفسه بدا أثر الانجليز واضحاً في معاكسة البرتغاليين ومع انهم لم يحصلوا قبل عام ١٦١٦ على أى فرمان يعطيهم تسهيلات خاصة محددة الا انهم عن طريق تدخل الاخوين شيرلي تمكنوا من احداث كل الاثار التي احدثوها في نفوذ البرتغاليين ، واذا ما قارنا بين وضع البرتغاليين عام ١٦٠٢ ووضعهم مثلاً عام ١٦٢٢ فاننا نرى عجباً . لقد خسروا وضعهم في البحرين

وخسروا هرمز وقشم وصاروا يطاردون من دخول العديد من المواقع كنخيلوه وكيش وبندر ريق ، ذلك بأن كراهية الناس لهم وجدت في الانجليز من يشجع على تنظيمها وتوجيهها لغايات فعالة محددة .

ولقد استمرت العداوة مستعرة بين الانجليز والبرتغاليين بغير تراخ حتى وقع بينهما أول محاولة للتصالح عام ١٦٣٤ وذلك بعد ان تم أكبر حدث أنهى كل قيمة أساسية في وجود البرتغاليين بالخليج الا وهو طردهم أولا من قلعتهم في قشم التي كانت تحرس عملية توريد المياه لهم في هرمز ثم طردهم بعد ذلك مباشرة من هرمز وذلك بعملية كبرى مشتركة ساهم فيها جيش كبير للشاه عباس فيما تولت السفن البريطانية ضرب الاسطول البرتغالي والقلعة في هرمز حتى سقطت القلعة في ابريل عام ١٦٢٢ وطوى عن قلعتها علم البوكيرك بعد ان رفع عليها مدى مئة وأربع عشرة سنة .

ويحاول المؤرخون الانجليز ان يوجودوا مختلف اشكال المبررات لموضوع حساس يؤرقهم وهو تحالفهم وهم دولة نصرانية مع عدو مسلم ضد أبناء دينهم البرتغاليين وهم يحاولون ايجاد مبررات عديدة عاطفية في مجملها ولا تنهض امام حوار أو نقاش ، من ذلك ان الشاه عباس هددهم بأن يوقف امتيازاتهم وسائر الفرمانات التي أصدرها لصالحهم بالنسبة لتجارة الحرير وغير ذلك . ومنها ان الذين قرروا اتخاذ ذلك الموقف هم تجار والتجار تهمهم كثيرا مصالحهم المادية .

وينسى هؤلاء ان الموقف من الدول الأوروبية وغيرها في الخليج والمحيط الهندي كان من موضوعات الحاضر والمستقبل التي لا يمكن ان يترك تقريرها لتاجر ، كما ينسون ان الانجليز حاربوا البرتغاليين وهزمهم في صورت بالهند ابتداء من عام ١٦١٢ وإلى

عام ١٦١٥ ، وانهم لاحقا مثلوا دورا مماثلا مع الهولنديين فقد استعانوا بهم ضد البرتغاليين ثم قبلوا لهم ظهر المجن .. كذلك فان الانجليز لم يلاقوا ترحيبا حارا من البرتغاليين حين شرعوا في انشاء مركز لهم في جاسك بجنوبي الخليج ، ولا حين تمكنوا من الحصول على احتكار للمتاجرة وحدهم بحرير فارس ... وانه لأمر سهل حقيقة ان يزعم الانجليز انهم وصلوا بمجموعة سفن الى جاسك بمحض الصدفة حين كان الايرانيون يصطدمون بالبرتغاليين في قشم ، كما انه ليس صحيحا وما كان يمكن ان يكون صحيحا ان السفن الانجليزية التي وصلت كانت مجرد سفن تجارية بريئة وان أصحابها أخرجوا كثيرا حين طلب اليهم الاشتراك في معركة بحرية وان بعض البحارة تمردوا على ذلك الطلب لأنهم لم يتعاقدوا كجنود ولكن كبجارة سفن مسالمة . ويورد المؤرخ البريطاني هربرت شروط الاتفاق الفارسي الانجليزي الذي تم بموجبه وفي أثره مهاجمة هرمز وهي :

١ - تؤول القلعة البرتغالية للانجليز وعلى الايرانيين ان يقيموا لهم قلعة خاصة بهم في الجزيرة اذا شاءوا .

٢ - تقسم الغنائم بين الطرفين مناصفة .

٣ - الانجليز يكونون هم المسؤولين عن الأسرى المسيحيين الذين يقبض عليهم في الجزيرة أثناء القتال وبعده .

٤ - يدفع الفرس نصف تكاليف الحملة الجارية كأثمان الذخائر وأجور النقل .. الخ .

٥ - تعفى تجارة بريطانيا في بندر عباس من الضرائب الى الأبد .

لقد تحمل الايرانيون بقيادة امام قولي خان العبء الحقيقي في معركة هرمز وخسروا ألف قتيل على أقل تقدير بينما لم تزد خسائر الانجليز على العشرين اصابة ،

البرتغاليون يتحولون لمخالفة الأتراك

بقيت للبرتغاليين فرصة وحيدة أخيرة في الخليج ألا وهي محاولة الارتكاز الى مركزهم المتماسك في مسقط وعمان عموما وفي الوقت نفسه تجربة التحالف مع الاتراك لمحاولة اعادة التوازن الى الأوضاع في الخليج بعدما بدت نتائج التحالف الانجليزى الفارسى وما أدى اليه من طرد البرتغاليين من سائر مراكزهم القوية خارج عمان .

وكان أمرا طبيعيا والحالة تلك ان يرحب الاتراك بالتحول القهرى الذى طرأ على سياسة البرتغال وان يفتحوا لهم أذرعهم في البصرة ليمارسوا كامل الحرية في تأسيس مركز تجارى وجالية برتغالية هناك خصوصا وان ذلك معناه تحول التجارة البرتغالية الهندية الى البصرة بكل ما يعنيه الأمر من ضرائب وأرباح .

ولكن الطرف الآخر لم يكن غافلا وهنا نلاحظ نشاطا ايرانيا قويا لمحاولة انتزاع البصرة أو التأثير على الوضع فيها ، ونجد البرتغاليين يقفون الى جانب الاتراك في تأمين البلد وسلامة المرور التجارى اليها من كل اتجاه ..

التعاون الحربى التركى - البرتغالى

(٥٢) - محاولة أخرى لاسترداد البحرين

ولدينا رسالة مؤرخة في ٥ يناير ١٦٢٩ وفيها توجيه من القيادة البحرية البرتغالية الى قائد فصيل بحرى متعلق بأعمال حربية مشتركة بين الاتراك والبرتغاليين وهي تدل على ان الفريقين كانا يشنان هجمات متلاحقة على الشاطئ الايرانى وعلى البحرين ويحاولان جهدهما صرف سائر

أما البرتغاليون بالطبع فان ثلاثة آلاف نسمة منهم بين مقاتلين وأفراد أسرف قد ذاقوا الأمرين من الحصار والجوع والعطش والاصابات والخوف بحيث رقى الانجليز لحالهم كثيرا وعاملوهم معاملة جيدة ولكنهم لم يستطيعوا الحيلولة دون فوضى النهب والسلب في القلعة وفي هرمز على السواء . وكما ذكرنا من قبل فان سقوط هرمز كان ختام المحاولات الكلامية التى كان يصدر عنها البرتغاليون في صدد السعى لاستعادة البحرين .

كراهية المنطقة للبرتغاليين

لم يكن الانجليز أو سواهم محتاجين لكبير جهد في نشر الدعاية ضد البرتغاليين فقد اعتاد أولئك الناس العنف وسفك الدم والنهب وغلظ القلوب وهم لم يكفوا عن عاداتهم حتى بعد مرور أكثر من قرن على ظهورهم الأسود في الخليج . ففي عام ١٦١٦ م هاجموا فجأة مدينة صحار على ساحل عمان وهي المدينة التى ذقت الويل منهم مرارا وذلك لأنهم كرهوا ان يظهر ميناء ناشط في عمان ينافس هرمز ومسقط ولا تكون لهم فيه الكلمة العليا وجمع الضرائب الباهظة وقد قتلوا حامية المدينة وشيخها وأسروا خاله ثم أعدموه .

ولا بد لنا من الإشارة الى ان مصالح الانجليز شملت فارس طولا وعرضا قبل معركة هرمز فقد تعددت بعثاتهم وكثرت وكالاتهم فبالإضافة الى جاسك أسسوا وكالة في شيراز وأخرى في اصفهان ولم تغلج جهود البرتغاليين السلمية المستميتة في اقناع الشاه عباس بالتروى في علاقته مع منافسيهم .

أولا : عليك مرافقة الباشا (التركي متسلم البصرة) حتى القطيف ، وعليك ان تتوقف عما كنت تعزم عليه من حرق قرى قطر الساحلية ولكن سر قدما الى جزيرة



○ صورة لرأس المظل مقرب على درع القائد البرتغالي انطونيو كوريا مأخوذة عن المصادر البرتغالية وموجودة بمرکز الوثائق التاريخية

خارج ، وعليك ان تدمر السفن والمراكب الصغيرة التي تجدها في طريقك والتزم بقتل من فيها لكي تظل مهابا يمثل هذه الاجراءات الصارمة .

ثم تفصل الرسالة شروط عقد تأجير السفن للباشا خلال شهر اكتوبر ونوفمبر ومصروفات البحارة واطعامهم أيضا على حساب الباشا .

وفي هذا الصدد تقول الرسالة وفي بداية

السكان العرب في شمالي الخليج عن التعامل مع سلطات الجنوب الفارسية - البريطانية والتهديد بالانتقام من الذين يقبلون الأمر الواقع هناك والناشئ عن سقوط هرمز وغيرها في معازل البرتغاليين .

وللأهمية ولطرافة هذه الرسالة فاني أقتطف فقرات منها أترجمها عن الانجليزية التي كانت ترجمت لها من البرتغالية جاء في تلك الرسالة أو التوجيه ما يلي :

« لقد برهن على باشا (متسلم البصرة التركي) انه مخلص في مساعدة حكومة صاحب الجلالة (الاسباني ملك البرتغال أيضا الى ذلك الحين) فهو قائم على شأن الحرب ضد فارس بتصميم واضح ، بعد ان تمكن مؤخرا من احداث اضرار كثيرة في البحرين وانه لمن المناسب جدا لنا ان نواصل مساعيها معه لاخلاء تلك الجزر (من قوات العدو) كما ان باستطاعة بوارجنا دعم سفنه في شن غارات متواصلة على الساحل الايراني مما يؤدي الى ايقاع خسائر ضخمة بالمشاه .

وانها لخطة ملائمة جدا ان نؤجر خدمات سفننا لباشا البصرة فنوفر أموالا على صاحب الجلالة ، واني اذ أدع قوات الاسطول تحت تصرف سعادتك لوائق بانك ستحقق به نجاحات جيدة في كل المناسبات وفيما يلي تعليماتي لك وعليك الالتزام بها الى ان تصلك مني أوامر أخرى .

اكتوبر سيكون على الباشا ان يدفع ١٥ ريع ريال لكل من البحارة وعلى مدى ثلاثة أشهر ومائة من نفس العملة لكل ضابط وثلاثمائة قطعة لسعادتك (القطعة تسمى بارداو ؟) . كما عليه تقديم المؤنة للبحارة وفي نزولهم للبر عليه توفير السكن أيضا .

ثم يوصيه بحسن معاملة الضباط والبحارة وتجنبيهم ارتكاب المساءات في كل من راس التنورة والقطيف وان يتحببوا هناك للأهالى حيث ستكون الإقامة لثلاثة أشهر في الخدمة بين سواحل القطيف والبحرين فاذا طلب الباشا ثلاثة أشهر اخرى عليك ان تخبره انك تفضل التوجه الى نخلوه والالتجاء الى مواقع أمينة هناك طوال شهر فبراير حين تكون سفن الأعداء تتجول في سواحل هرمز ومن ثم تعود الى القطيف بعد فبراير وانت رجل مجرب ولا حاجة لى لأوضح المزيد لك .

واذا طلب الباشا منك مهاجمة ايران فعليك الا تتردد كما عليك ان تحاول حرق السفن التى تجدها قريبا من البحرين وتختتم الرسالة بهذه العبارة :

« وفي الختام فاننى لا احتاج لأن أؤكد لسعادتك كم هو هام ان نحافظ على هذا الباشا ، ولولسبب واحد ان لم توجد أسباب أخرى وهو استعداداه لتحمل نفقات السفن وبالتالي فنحن سعداء ان نبرز لنا وجودا فعلا في المضائق علما بأن صاحب الجلالة لا

يتحمل أية مصروفات في ذلك وبذلك فنحن نوقع الأذى بعدونا الفارسى ونعرقل الملاحه في المضائق (هرمز) ونكبد أعداءنا خسائر كبيرة وخلاف ذلك مما لا يخفى على رجل مجرب مثلك مخلص في خدمة صاحب الجلالة مولانا الملك .

التاريخ ١٢ سبتمبر ١٦٢٧
(التوقيع غير مثبت)

طرد البرتغاليين من عمان وتحولهم الى مرتزقة

لكن تأجير السفن البرتغالية الى متسلم البصرة لاحداث تأثير في الجانب الآخر وهو الحلف الانجليزى - الفارسى لم يكن ليغير شيئا من حقائق الأمور الجديدة في الخليج . وعلى العكس من ذلك فان البرتغاليين واجهوا الضربة الأخيرة القاضية في عمان بقيام دولة اليعاربة وبعد عشر سنوات من الكفاح من ١٦٤٠ - ١٦٥٠ م سقطت صحار وكوراسار ودويار والقريبات وفي ١٦٥٠ انتهت الهجمات المتكررة اليعربية على حصن مسقط الحصين الى تسليمه وجلاء حامية البرتغاليين وانتهاء وجودهم المساوى في عمان .. وبذلك لم يبق لهم أى مركز . أما وجودهم في البصرة فكان وجود جماعة مرتزقة كما رأينا في نص الرسالة السابقة ..

وسبحان الله يداول الأيام بين الناس ..

الهوامش

- (١) راجع لوريمر - الترجمة المنقحة لمكتب امير دولة قطر. المجلد الاول - تاريخي - ص ١٠
- (٢) موجودات قسم الوثائق لمكتب سمو الامير، وثيقتا ٥ يناير ١٦٢٩ و ١٠ يناير ١٦٢٩ الترجمة لمكتب جولينكيان في لشبونة.
- (٣) تحفه المستفيد للانصاري مطابع الرياض ١٩٦٠ ص ١٢
- (٤) ج-٢ ص ٢٢٨
- (٥) النسخة التيمورية ص ٣١٦ - رقم النسخة ٩٢٦
- (٦) عائشة السيار - دولة اليعاربة - الناشر دار القدس ص ١٩
- (٧) التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرقي الجزيرة العربية - د. عبد اللطيف الحميدان العدد ١٦ السنة ١٤ مجلة كلية الاداب جامعة البصرة ص ٤٠
- (٨) مجلة كلية الاداب لجامعة البصرة العدد ١٦ صفحة ٥١
- (٩) دولة اليعاربة - عائشة السيار - نشر دار القدس
- (١٠) لوريمر الترجمة الجديدة الجزء الاول التاريخي ص ١١
- (١١) دراسات تاريخ الجزيرة العربية - الجزء الثاني لمصادر تاريخ الجزيرة - مطبعة جامعة الرياض ص ١١٧
- (١٢) الرسائل - مجموعة جوا دي سوزا - قسم الوثائق والابحاث - قصر الدوحة.
- (١٣) دليل الخليج الجزء الاول - ص ١٤ - الطبعة الجديدة بالدوحة.
- (١٤) مجلة الجمعية الملكية لاسيا الوسطى - المجلد ٢٢ لعام ١٩٣٥ ص ٦١٨.
- (١٥) دليل الخليج ج ١ ص ١٢ - الترجمة الجديدة.
- (١٦) الخليج العربي ارنولد ويلسون - ترجمة عبد القادر يوسف مكتبة الامل - الكويت ص ٢٠٨
- (١٧) الجزء الاول تاريخي - دليل الخليج الترجمة الجديدة ص ١٣
- (١٨) ارنولد ويلسون - الخليج (الفارسي) ترجمة عبد القادر يوسف - الكويت ص ٢٠٨
- (١٩) ويلسون - الخليج (الفارسي) نفس الترجمة ص ٢١١
- (٢٠) ص ٦١٨ الجزء XXII مجلة الجمعية الملكية لاسيا الوسطى لعام ١٩٣٥
- (٢١) A NARRATIVE OF ITALIAN TRAVELS IN PERSIA IN THE 16th. CENTURY. HAKL. (٢١)
SOC. (LONDON 1873) PP. 221-222.
- (٢٢) دراسات الخليج والجزيرة. د. طارق الحمداني ص ٦٥ (سنة تسعة، عدد ٣٤).
- (٢٣) سائر هذه الاوامر يوجد ضمن وثائق الباشيكنك (رئاسة الوزراء) اسطنبول وهي مفعمة بالعواطف الجياشة ضد مقاصد البرتغاليين الصليبية.

(٢٤) لوريمير - ج ١ التاريخي ص ١٣ ، الطبعة الجديدة.

(٢٥) الترجمة العربية لكتاب ارنولد ويلسون طبعة الكويت وترجمة عبد القادر يوسف ص ٢١١

(٢٦) تاريخ الدولة العثمانية لأحمد جودت مجلد ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ طبعة ثانية (١٣٠٩ هـ).

(27) SIR ARNOLD WILSON - THE PERSIAN GULF - GEORGE ALLEN AND UNWIN THIRD IMPRESSION 1959 - PP. 117-122 PASSAGES TRANSLATED BY WRITER.

(٢٨) مقال مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى مجلد XXII لعام ١٩٣٥ صفحة ٦١٩

(٢٩) دليل الخليج ج ١ تاريخي ص ١٤

(٣٠) أرنولد ويلسون - الخليج الفارسي - النسخة الانجليزية ص ١٢١ طبعة ١٩٥٩ (الثالثة).

(٣١) عبارة الانصاري في تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء القديم والجديد / مطابع الرياض ١٩٦٠م صفحة ١٢٠

(٣٢) تحفة المستفيد طبعة الرياض ١٩٦٠ الصفحة ١٢١

(٣٣) HISTORY OF PERSIA-SIR PERCY SYKES-THIRD EDITION-PAGE 162

(٣٤) العدد ٢٢ ، لعام ١٩٣٥ من ص ٦٢٠ - ٦٢٤

(٣٥) دليل الخليج ج ١ تاريخي ص ١٥ - الترجمة الجديدة .

(٣٦) لوريمير ج ١ تاريخي ص ١٥ - الطبعة الجديدة

(٣٧) لوريمير ج ١ ص ١٦ الترجمة الجديدة .

(٣٨) الدكتور طارق الحمداني - دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٣٤ ص ٦٥

(٣٩) كان دخول الأتراك الى القطيف عام ١٥٥٠ بدعوة من السكان العرب .

(٤٠) يرى ذكر هذه الرسالة ضمن رسالة من مناويل دي ليما حاكم هرمز الى نائب الملك في جوا (يونيو

١٥٤٧) وقد حققها المؤرخ التركي أوزران (الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي

١٥٣٤ - ١٥٨١ ترجمة ناجي بغداد ١٩٧١ ص ٣٩ .

(٤١) مجلة الجمعية الملكية لوسط آسيا المجلد ٢٠ ص ٦٢٠ (١٩٣٥) - وصف للبحرين لديورات باربوزا .

THE PERSIAN GULF — ARNOLD T. WILSON, ALLEN & UNWIN P. 124 (٤٢)

(٤٣) ص ٦٦٦ الفقرة الثالثة - JOURNAL OF THE ROYAL CENTRAL

ASIAN SOCIETY VOL. XXII (1935) P. 626

(٤٤) تاريخ أحمد جودت طبعة ثانية ١٣٠٩ . هجرية مجلد ١ ص ١٤٤

(٤٥) الدكتور سليمان الغنام - مصادر تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الأول ص ١١٧ - كلية الآداب / جامعة الرياض .

(٤٦) عن عام ١٦١٦ م / ١٠٢٥ هـ - كتاب ابن السالمى اياه .

(٤٧) صورة من الرسالتين المطبوعتين بمكتب الوثائق بالدوحة - ص ٢٤٤ .

(٤٨) مقال الجمعية الملكية الآسيوية XXII ص ٦٢٨ لعام ١٩٣٥ .

(٤٩) لوريمير - القسم التاريخي ص ٢٠ الجزء الاول - ترجمة أحمد العناني / مكتب الوثائق والابحاث بقصر الدوحة .

(٥٠) مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى - ص ٦٢٨ عدد ٢٢ عام ١٩٣٥ .

(٥١) مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولي في الخليج العربي من ١٦٢٢ - ١٧٦٣ .

(٥٢) هذه رسالة أصلية استحصل عليها مركز الوثائق في الدوحة بالتعاون مع مؤسسة جولبنكيان في لشبونة وهي تشمل تعليمات الى القبطان د. جونزالودا سلفسترا المسئول عن ٦ سفن برتغالية مسلحة .

المراجع

- ١ - أحمد جودت - موسوعة التاريخ العثماني ، مجلد ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ .
- ٢ - بيرى رئيسي - كتاب البحرية ص ٦٢ - ٦٧ .
- ٣ - ج ج لوريمر - دليل الخليج « القسم التاريخي : ج ١ ، ج ٣ » ترجمة أحمد العناني .
- ٤ - دائرة المعارف الإسلامية - المجلد الثالث .
- ٥ - سليمان محمد الغنام - الوجود البرتغالي في عمان في المصادر المحلية العمانية ، « من الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى بدراسات تاريخ الجزيرة العربية » الكتاب الأول ، الجزء الثاني ، كلية الآداب / جامعة الرياض / ١٩٧٧ م .
- ٦ - عائشة علي السيار - دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا ، في الفترة من ١٦٢٤ - ١٧٤١ م ، الطبعة الأولى ، دار القدس ، لبنان ، ١٩٧٥ م .
- ٧ - د. عبد اللطيف ناصر الحميدان - التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية ، مجلة كلية الآداب / جامعة البصرة / العدد ١٦ ، السنة الرابعة عشرة ، ١٩٨٠ م .
- ٨ - طارق نافع الحمداني - تجارة البصرة الخارجية ودورها في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٣٤ ، السنة التاسعة ، الكويت ، ١٩٨٣ م .
- ٩ - محمد بن عبدالله بن عبد المحسن آل عبدالقادر - تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٩٦٠ م .
- ١٠ - أحمد العناني - الأوروبيون في الخليج « البرتغاليون » ، مجلة الدوحة ، اعداد : أغسطس ، سبتمبر ، اكتوبر ١٩٧٦ م .
11. Documentos Arabicos: Para A Historia Portuguesa, Nos. I-II & LII, Documents Sec., Doha Palace.
12. Instructions for D. Goncalo da Silveira, Captain in Chief of Portugal Navy, Documents Sec. Doha Palace.
13. Ozbaran, Salih, Two Letters of Dom Alvaro De Noronha from Hormuz, Edebiyat Fakultesi Matbasi, Istanbul, 1978
14. Various Film Material on Bahrain, No.R/15/2, British Library: India Office Records, London.
15. Journal of the Royal Central Asian Society. Vol XXII, London, 1935.
16. Belgrave, Charles, Personal Column, Librairie du Liban, Beirut, 1972
17. Miles, Colonel S.B., Countries and Tribes of the Persian Gulf, Harrison & Sons, London, 1920.
18. The New Encyclopaedia Britannica, Vols.2 & 14, Hemingway Benton, Chicago, 1977
19. Sykes, Sir Percy, History of Persia, Macmillan, London, 1951
20. Wilson, Sir Arnold T., The Persian Gulf, George Allen & Unwin, London, 1959.